إلى القارئ

المجالس الجهوية للثقافة و«الزمن الصعب»

بقلم : البشير بن سلامة

لفت نظري في أواخر شهر جانفي ما أوردته وكالات الانباء من أصداء عن المؤتمر الثامن والاربعين لنادى القلم (بين كلوب : Pen - Club) المنعقد في نيويورك بين 12 و 17 جانفي 1986 . وقد ضم حوالى 700 كاتب من قارات عديـدة (لا أعرف هل أن كتابا عربا شاركوا فى هذا المؤتمر ؟) وتناول بالبحث موضوعا مثيرا هو «خيال الكاتب وخيال الدولة» . وحضر هذا المؤتمر كتاب مشهورون اغلبهم غير معروف فى الساحة العربية ! الثقافية مع انهم محرزون على جوائز عالمية ومنهم الكاتب الفرنسى كلود سيمون (Claude Simon) (جائزة نوبـل لسنة 1985) .

وبقطع النظر عن الهوامش المثيـرة التى ابرزتهـا الصحافة فيما يتعلـق بحضور وزير خارجية الولايات المتحدة الامـريكية او المديـر العـام لمنظمـة اليونسكو فان الذى أريد أن أتعرض اليـه فى هـذه الافتتـاحية بالتعليـق والتوضيح هو تدخل الكاتب الفرنسى « كلود سيمون » فى هذا المؤتمـر ، والعنوان الذى ارتضته جريدة « لابـريس » التونسية لخبر من أخبار هذه الندوة ، عندما اختارت عبارة « الازمنة الصعبة » .

عرفت مجلة « نوفل أبسرفاتور » (Nouvel Observateur) (24 ــ 26 جانفى 1986) الدولة عندما قدمت لتدخل صاحب جائزة نوبل بانها « احد الرؤوس السبعة للافعوان الذى لا هم له إلا خنق كل تجديد » وهو تعريف لا ينطبـق تماما مع ما أراده الكاتب فى تدخله وإنما هو تجوز ارتضته المجلة لانه يتماشى مع اتجاهها المعروف .

يقول كلود سيمون ما معناه : «عندما عرفت أحد أغراض المؤتمر الداعية الى استجلاء الكيفية التى بها يظهر خيال الدول تعجبت من ذلك اذ أنه باستثناء

عدد من الزعماء أصحاب المذاهب التوسعية مثل هتلر والخميني فان الذى تختص به الدولة بادىء ذى بدء (كل سلطة مستمرة) هو انعدام الخيال منها ووجود اخلاقية مرتكزة على غاية واحدة الا وهى الحرص على المحافظة على ثبات النظام القائم » .

ثم يقول : « أظن انه من الخطأ الفادح اعتبار الدولة او السلطة (بل السلط) قوة ظالمة فكريا ديدنها التصدي تقريبا لكل القوى المقوضة أو المتمردة . بل إن الامر هو عكس ذلك إذ ان الدولة (أو السلطة) تعكس بصورة امينه اذواق ورغبات الرأى العام الذى أقام هذه الدولة وأقرها » وقديما قالت العرب : « كيفما تكونوا يول عليكم » .

وبعد ان ياتي بامثلة تؤيد قوله يستخلص من ذلك ان الجماهير والدول المنبثقة عنها تجد انفسنا متفقة بصورة عفوية للادانة والاعراض عن كل ما من شانه تعكير صفو النظام القائم . ويجره هذا الى التسليم بان صيغة السؤال يجب ان تكون كالآتي : « لا كيف يظهر خيال الدولة بل كيف يظهر خيال المجتمع » . ويتناول بالبحث نتيجة لهذا الممنوعات والمحظورات التى تفرضها المجتمعات ومع هذا فهى تعجز فى كثير من الاحيان ذوي الشذوذ الثقافى وتحتضنهم مثل حركتي « الدادائية » (Dada) والسريالية اللتين ظهرتا فى السنوات العشرين والثلاثين من هذا القرن .

ثم يستنكر « كلود سيمون » ، غرضا آخر من الاغراض المقترحة والوارد فى صيغة تكاد تكون بديهية وهو : « اليس دور الكاتب ان ينتج تآليف تكون معارضة لكل ما تهواه الثقافة المحيطة به ؟ » ويقول : « إن هذه الجملة تذكرنى باحد قادة النازيين الذى كان يقول : « عندما أسمع بكلمة ثقافة أخرج مسدسى » ويضيف قائلا : « انه لا يمكن أن يتم شيء له قيمة اذا كان فى حالة معارضة او ضدية ، وهنا اتفق مع « جيل دولوز » (Gilles Deleuze) عندما يصرح بان كل خطاب فيه ضدية إنما هو خطاب صفر بينما يظهر ــ وهذا من قبيل المفارقات ــ ان كل حركة فيها مقاومة للثقافة تندرج فى إطار الثقافة سواء كانت عن رضا أو عدم رضا ». ويوضح فكرته مبينا ان الجماهير قد كفت تماما عن كل إنتاج ثقافى واصبحت تستهلك ما يعد لها ولكن المجدد رغم هذا يبقى غارقا فى محيط ثقافى (محيط المتاحف والمكتبات وغيرها) والخطأ

الفادح هو الميل الى التفكير فى أن المجدد لم يكن له ابدا من غرض الا العمل فى اتجاه معارض لهذا المحيط . بل بالعكس فانه انطلاقا من هذا المحيط فتح كل واحد من المجددين طريقه » .

هذه بعض العينات أوردتها من كلام هذا الكاتب الذى حاول ان ينقد بعض المسلمات الشائعة اليوم والتى يتلقطها كشعارات للاسف الكثير من المثقفين وخاصة من العالم الثالث يحاولون تطبيقها وهى فى أغلب الاحيان منبثقة عن مجتمعات قد عرفت من الاستقرار فى كنف دولها ما جعلها تتحجر وتتحنط وتاخذ قوالب من الجمود تحتاج الى تغيير ما بها . والغريب أن لفظة دولة فى العربية مشتقة من دال الامر اى انتقل بينما فى الفرنسية تدل على الحالة المستقرة . وهو ما يفرض علينا فى بلدان العالم الثالث أن نبنى دولنا على الاستقرار اى على القانون وألا نميل الى ما يوحى به لنا هؤلاء الذين لا يخشون على مجتمعاتهم شيئا نظرا الى صلابتها ويحثوننا على تغيير ما لم يثبت بعد وما لم يزل هشا لانه انبنى على انساق تخضع الى البداوة أو القبلية أو غيرها من الاشكال البعيدة عن كل مقوم من مقومات الدولة .

واذا كانت البلدان التى رزحت طويلا تحت نير الظلامية أو الاستعمار لا تجد بينها من له القدرة على التجديد ثم سلطة التأثير فى المجتمع فمن بقي لها غير الدولة مصدر الخيال الوحيد وإلا اندثرت مجتمعاتنا وذهبت ريحها .

وليس من الغريب أن نجد ابا القاسم الشابى المجدد ينفي عن العرب الخيال الشعرى فى محاضرته المشهورة لانه اصطدم بحقيقة مرة تتمثل فى الجمود الذى كان يعمل على استمراره «المثقفون» آنذاك ونظام الحماية والملوكية البائدة.

ولهذا كان التجديد فى تلك الفترة هو المحرك لكل الطاقات الشابة آنذاك من رجال الفكر والادب والنقابيين والسياسيين وليس من باب الصدفة أن كان الحزب الذى قاد الثورة التجديدية بزعامة الحبيب بورقيبة سمى نفسه الحزب الجديد وآلى على نفسه عندما افتك مقاليد الامور بعد الاستقلال أن يكون ذا خيال خصب ، مجددا ، خلاقا .

إن الدولة فى تونس المستقلة لم تكن توسعية مثل غيرها من كثير من الدول المستقلة حديثا ، ولم تعمل على ابقاء ما كان على ما كان بل إن الذى تم فى تونس منذ ثلاثين سنة لتجديد الطاقات البشرية بالتعليم والثقافة والتوعية

يدل على خيال خلاق قل أن حدث مثله فى دول العالم الثالث (*) . وهو ما جعلنى احبذ العنوان الذى وضعته جريدة « لابريس » ابرازا لهذا الزمن الصعب الذى اختلطت فيه الامور حتى على الكتاب الافذاذ وراحوا يخبطون فى متاهات لو ضلوا فيها وحدهم لكان وزرهم عليهم ولكن هم يجرون غيرهم من البشر الى ما لا تحمد عقباه وخاصة فى بلدان العالم الثالث : رجالا ونساء (وليس تحرير المراة إلا دليلا آخر على ذلك) .

والدولة فى تونس ليست طبقة معينة بل هى كل فئات الشعب والتى خرج الكثير منها من عدم وآمن بالتجديد والخلق والابتكار فلا يمر يوم من دون أن يظهر ذلك فى هذه المبادرات المتعددة الجوانب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .

وقد عمدت الى ذكر المجالس الجهوية للثقافة فى عنوان الافتتاحية لأدلل على أن الدولة التونسية ليست تلك التى عناها بعض الذين ائتمروا فى نيورك بل هى تلك التى تعطى للمواطنين حرية المبادرة والتصرف اذ ان وجود أغلب الممثلين عن الطاقات الحية فى الجهة فى هذه المجالس ليخططوا العمل الثقافى فى حرية تامة ويقدموا الاقتراحات ويتابعوا تنفيذ البرامج لا يدل على أن هذه الدولة « راس من رؤوس الغول يخنق كل تجديد » .

والخوف كل الخوف من اولائك المثقفين الذين قد أعرضوا عن كل روح تجديدية وخلوا من كل خيال وراحوا يجذبون المجتمع الى عصور الظلام والرجعية أو الى الانساق المذهبية المحنطة وهم فى كل ذلك لا يتصورون الفعل الا كرد فعل ولا يرون الخطاب مجديا الا اذا اتسم بالضدية وهو فى الواقع كما قال « دلوز » خطاب صفر .

البشير بن سلامة

(*) من نكد الدهر أن بعض المثقفين « الكتاب » حبر مقالة فى بعض المجلات يعيب علينا أننا لم نسلك السياسة التوسعية مثل بلدان فى حجمنا وأننا لم نوجه أموال الشعب لاقتناء أسباب القوة التى من شأنها أن تمكننا من التدخل فى الغير .

ان عهد هيمنة ثقافة واحدة قد ولى وانقضى

بقلم: محمد مزالي

ان الشرف الذى يلحقني اليوم (*) اذ تتفضلون بمنحي الميدالية الكبرى للمنظمة ، وتغمروننى بآيات تقديركم لمساهمتى المتواضعة فى خدمة الثقافة العربية وحضارتها لهو فى الواقع شرف لتونس التى لا تزال تساهم منذ أربعة عشر قرنا فى اثراء الحضارة العربية الاسلامية بعطاء عباقرتها وابداع رجال الفكر والفقه والقانون والعلوم فيها ، وصمودها الرائع ازاء هجمات الصليبيين وقراصنة النرمان ، وجهادها المستميت فى وجه الاستعمار والمسخ الثقافى ، فظلت وستظل بحول الله رافدا دفاقا من روافد حضارتنا العربية الاسلامية الكبـرى .

ويحق لنا فى هذا الصدد أن نعتبر جهاد الرئيس الحبيب بورقيبة المتواصل منذ أكثر من خمسين سنة جهادا بطوليا ذا ابعاد تاريخية وانسانية اذ ارجع للقطر التونسى شخصيته العربية الاسلامية بعد ثلاثة أرباع قرن من الاستعمار التوطينى وخصه من عقارب التلاشى ودرأ عنه الاستلاب ووقاه من الذوبان فى الغير . واليه يرجع الفضل كذلك فى قيادته الموفقة للشعب التونسى منذ الاستقلال وحرصه على بناء دولة تعانق عصرها ، هى دولة العلم والعقل فروعها شامخة فى سماء المعرفة والتقدم وأصولها ضاربة فى أعماق الأصالة الحق .

(*) هذا نص الكلمة التى القاها الاستاذ محمد مزالى يوم 21 ديسمبر 1985 عند تسلمه ميدالية منظمة التربية والثقافة والعلوم (الألكسو) التى أسندت اليه تقديرا لخدماته الجليلة فى حقل الثقافة والتربية .

وفى خضم هذا الزمن الصعب الذى استشرى فيه صراع الحضارات وتصادم الثقافات تخوض أمتنا العربية معركة من أخطر معارك تاريخها الطويل من أجل اثبات الوجود وتحقيق المصير الامثل ، مما يستوجب على جيلنا مزيد الصمود فى وجه كل ألوان الاستلاب والوقوف أمام كل الاخطار حتى لا تحني هامتنا الاعاصير ولا يدركنا الوهن والاعياء .

انه ليس هناك رسالة أعظم ولا موقف أشرف ولا مسعى أنبل من هذا الذى يدفع المرء الى الحفاظ على الحضارة والثقافة العربيتين لتبقيا ثابتتى الاركان شامختي البنيان ، كما انه ليس هناك جهاد أمتع ولا فعل أجل من خوض معركة التقدم والاسهام فى الحضارة الانسانية خلقا وابتكارا وابداعا .

وان ما تقوم به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أعمال جليلة فى هذا الباب بتعاون مع كل الطاقات الحية فى أقطارنا العربية انما يندرج في هذا الاتجاه.ويسعى سعيا موفقا الى بلوغ الغاية المرجوة رغم شتى الضغوط ، بل ان أهل الثقافة والفكر العاملين فى رحاب هذه المنظمة قد حققوا الكثير وهم منطلقون بعزيمة صادقة وايمان راسخ الى اكساب ثقافتنا العربية ما به تسمو الى المنزلة التى اليها نطمح .

وانه لمن دواعى الغبطة والسرور أن أتوجه بالشكر والامتنان والتقدير الى الرجل الذى يشرف على حظوظ منظمتنا بحنكة ودراية وحكمة أعني صديقنا العزيز الدكتور محيي الدين صابر المدير العام وهو الذى دخلت المنظمة بفضله وبتعاونه مع المكتب التنفيذى فى تحقيق مشاريع هامة نؤمل بفضلها أن تكتب الثقافة العربية فى سجلها آيات خالدة من العزة القعساء ، والتقدم الأوفى ، والرقي الأمثل .

وإني انتهز هذه الفرصة لأثني على ما قاله صديقي العزيز الاستاذ الشاذلى القليبى الامين العام لجامعةالدول العربية.واني مسرور أن أضم صوتى الى صوته للترحيب بأخينا وصديقنا السيد أحمد مختار مبو المدير العام لليونسكو مبينا أنه يحق لنا أن نبرز مواقف السيد مبو تجاه القضية العربية العادلة من أجل الذود عن كرامة الامة العربية والحفاظ على التراث الثقافى العربى الاسلامى فى بيت المقدس . ان هذا الموقف انما هو نابع من رجل مؤمن أصيل . ونحن نعلم أن السيد مبو يواصل رسالته بشجاعة وحماس وهو المؤمن بشرعية أعماله وأخلاقية سلوكه .

وعلى غرار ما قاله الاستاذ الشاذلي القليبي فاني أريد ان أوجه ـ وأنا أخاطب فيكم الدول العربية ـ نداء الى مسؤولينا في الوطن العربي ليقدموا الى المدير العام لليونسكو المساعدة الفعالة والاعانة المتواصلة والمتزايدة . وبهذا العمل الدؤوب ستتقلص هيمنة سدنة الاستعمار والتمييز العنصري وبهذا سنقيم الدليل على أن ما تقوم به اليونسكو لانقاذ شخصية الشعوب الثقافية وتراثهم القومي انما هو في الواقع عمل متماش مع النص المؤسس لمنظمة دولية تعنى بالتربية والثقافة .

انه بات من الأكيد أن يتفق الجميع على أن عهد هيمنة ثقافة واحدة على الثقافات الاخرى قد ولى وانقضى وأن ثراء الثقافة الانسانية انما هو ثمرة اسهام كل الثقافات وحصيلة جهد كل الشعوب كافة .

أردت اذن ان أحيي بيننا السيد مبو واترجم له عن المشاعر التي يكنها نحوه الرئيس الحبيب بورقيبة وحكومته وشعبه مؤكدا له تاييدنا الكامل .

وفي هذا الباب يلذ لي أن أكرر ما قاله صديقنا « سين ماك برايد » من أن الهيمنة توقد نار الحقد وتغذي الخصومات : وفي بهذه الصورة تكون مهددة للسلم بين الناس .

واني أدعو الله من كل قلبي أن يمده بالعون وأن يزيده دعما لما تحلى به من قوة وشجاعة متمنيا أن نصل جميعا الى تحقيق ما نصبو اليه من أهداف .

في غمرة هذا العمل الكبير الذي تقوم به المنظمة وفي تشوفها الى غد زاهر للثقافة العربية وأمام هذه النخبة الممتازة من الوزراء والخبراء الصانعين لهذه المسيرة الملحمية والمسؤولين الاكفاء عن حظوظ الثقافة العربية ، اراني بقدر ما أنا شاعر بالسعادة تغمر قلبي وبراحة البال تشد كياني أحس بجسامة العبء الذي تحملونني إياه بقراركم الاخوي المتمثل في منحي الميدالية الذهبية للمنظمة . وليس لي من مونل في هذا الا ان أدعو الله أن يتيح لي من القدرة ما يمكنني من مواصلة المساهمة ولو بقسط متواضع في أداء هذه الرسالة ارضاء للضمير ووفاء لقوميتي ولانسانيتي .

مرة أخرى أشكركم جزيل الشكر على ما أوليتموني من حظوة وارجو لكم إقامة طيبة في وطنكم وحصيلة جيدة من الاعمال الخيرة .

اخوانيات

في غرة جانفي 1986 اختطف المنون والدة أخينا الاستاذ محمـد مـزالي مدير مجلة « الفكـر » ، ففاضت قريحة عدد من الاصدقاء الشعراء بقصائد رقيقة أحببنا تضمينهـا في هـذا العدد مشاركة في الأسى والحزن اللذين ألما بصديقنا الاستاذ محمد مزالي لعلها تخفف من الألم المبرح وتكون سلوى له ولنا في هذا المصاب .

وأسرة « الفكر » تتقدم في هذه المناسبة الحزينة بعميـق تعازيها الى مديرها وتدعو الله أن يخفف من مصابه وبكـلاءه برعايته ويسكن الفقيدة فراديس الجنان .

« الفكـر »

الام

ظلمتنـا الحيـــاة والظلم بـاق — كيف نشكو وكل شاك شـاق ؟
مـن قـديم وجدتنـا في طـريـق — عـــاثـر الحـظ غـــائـم الآفـاق
نحن نجري ولا ارى كيف يقضي — كلنا العمـر لاهثـا في السبـاق
وانتهـاء الحيـــاة مثـل ابتـداء — ووصـــول لنقطـــة الانـطـــلاق
فكانـا في حلقـة ليـس تفضـي — لسـواهـــا بالجـــري والارهـــاق
ما يقول الانســان في طبـع دنيـا — تستلـذ العـذاب عنـد الفـراق
ليـس غـدرا فـانهـا خبـرتنـا — كيـف تغتـال حبهــا بالعنـاق

غير انا والعمر شوط قصير … نحلم العيش يقظة باشتياق
أى كاس نذوق منها ارتشافا … لم نجد طعمها مرير المذاق
كل شبر فى الأرض حر وجمر … وسراب بلونه البراق
غير ظل مهما شقينا ظليل … وجناح فى كل حال واق
غير نبع من الحنان غزير … لم يدنس صفاؤه بالنفاق
إنها الأم حيث كانت ترانا … ونراها بالقلب والأحداق

د. جعفر ماجد

حزن دفين

حياة بلونا طعمها المر والحلوا … وأعمارنا فى الكون اقصوصة تروى
فيا «صاحب الفكر» الحصيف لأنت من … لدى الحزن والباساء لا يظهر الشجوا
تقبل عزاء من صديق على المدى … يحس بما تلقى من الحزن والبلوى
وكم نظلم الأم الرؤوم بقولنا : … (تدرع،عن الفقدان، بالصبرو السلوى)
ومن ذا الذى يسلو وينسى عزيزة … على حبها كل الحنايا غدت تطوى ؟!
وما فقدها ، فى القلب ، إلا شرارة … بها مهجة المحزون ، من بعدها ، تكوى
ولو كان قلب المرء صخرا ، فانه … على فرقة الأم الحبيبة لا يقوى
وقفت على قبر الفقيدة صامتا … بقلب كبير يرفض الدمع والشكوى
ولم تكن الأحزان دمعا ولهفة … ولكن لهيبا فى حنايا الفتى يطوى
سالت لها من خالق الكون رحمة … ومنه لها الغفران واللطف والعفوا
سقاها إله العرش فى الخلد كوثرا … واطعمها فى الجنة المن والسلوى

د. نور الدين صمود

غير انـا والعمـر شـوط قصير ... نحلـم العيـش يقظـة باشتيـاق
أى كـاس نذوق منها ارتشافـا ... لـم نجـد طعمهـا مريـر المذاق
كل شبر فى الأرض حـر وجمـر ... وسـراب بـلـونـه الـبـراق
غيـر ظـل مهمـا شقينـا ظليـل ... وجنـاح فـى كـل حـال واق
غيـر نبـع مـن الحنـان غـزيـر ... لـم يـدنـس صفـاؤه بالنفـاق
إنهـا الأم حيـث كانـت ترانـا ... ونـراهـا بالقلـب والأحـداق

د. جعفـر ماجـد

حزن دفين

حيـاة بلونـا طعمهـا المر والحلـوا ... وأعمارنا فى الكون اقصوصة تـروى
فيا «صاحب الفكر» الحصيف لأنت من ... لدى الحزن والباساء لا يظهر الشجوا
تقبل عـزاء من صديـق على المـدى ... يحس بما تلقى من الحـزن والبلـوى
وكـم نظلـم الأم الـرؤوم بقولنـا : ... (تذرع،عن الفقدان، بالصبرو السلوى)
ومن ذا الذى يسلو وينسى عزيـزة ... على حبها كل الحنايا غدت تطـوى ؟!
وما فقدها ، فى القلب ، إلا شـرارة ... بها مهجة المحزون ، من بعدها ، تكوى
ولـو كان قلب المـرء صخرا ، فانه ... عـلى فـرقـة الأم الحبيبـة لا يقـوى
وقفـت عـلى قبـر الفقيـدة صامتـا ... بقلب كبير يرفض الدمع والشكـوى
ولـم تكـن الأحـزان دمعـا ولهفـة ... ولكن لهيبا فى حنايـا الفتى يطـوى
سالت لها من خالـق الكـون رحمـة ... ومنه لها الغفـران واللطف والعفـوا
سقاها إله العرش فى الخلد كوثـرا ... وأطعمهاْ فى الجنـة المـن والسلـوى

د. نور الدين صمود

دمعة على الفقيدة

عائشة غديره والدة الاستاذ محمد مزالي

بـرغم المـوت فى دنيـا الـزوال خلقنـا للـصـمـود وللنضـال
وامـر اللـه ليـس لـه مـرد ونحـن الطـامحـون الى الكمـال
ولكنـا جبلنـا فـى حيـاة على سعـي ولـو فـوق المحـال
وهـب أن كـان يدفعنـا غـرور اتغـرينـا متـاهـات الخيـال
ونحـن هنـا عـلى درب الأمـانى نعيش الدهر فى حـرب سجـال
يمـوت المصلحـون لكـل حيـن ويخلـد ذكـرهـم رغـم الـزوال
وتفنـى المصلحـات وليس يبقـى سـوى آثـارهـن مـن الخصـال
لقـد نجلتـك عـائشـة عظيمـا كاعظـم مـا يكـون من الرجـال
لك (الفكـر) المقدس فى البرايـا فـلا تحـزن ومثلـك لا يبـالـي
ومثلـك لا تـزعـزعـه العـوادي ولـو حملـت اثـقـال الجبـال
وعن خير النسـاء رضعـت ثديـا فكنت (محمـدا) اسمـى مثـال
واحـرى أن اضمـن بيت شعـر أراه مطـابـقـا فـى ذا المجـال
(ولو كان النسـاء كمن فقدنـا لحيرت النسـاء عـلى الرجـال)
ورب العـرش انـزلهـا بقيمـا تطـوف بـه المـلائك فـى جـلال
فليست فى الثرى بل فى جنـان جـوار أبيـك شعبـان مـزالـي

حمـادي البـاجي

مرثية الطاهرة

المغفـور لهـا (عـائشـة)

ان فارقتنـا بامر الله (عـائشـة) فانهـا تركت فى الناس ذكراهـا
(محمـد) الفـذ من ربته تربية فاقت سواها فكيف اليوم ننساها؟
ام حنـون غـذته الحب فى لبـن فجل من فى الورى بالنبل سواهـا

دمعة على الفقيدة

عائشة غديره والدة الاستاذ محمد مزالي

برغم الموت فى دنيا الزوال خلقنا للصمود وللنضال
وامر الله ليس له مرد ونحن الطامحون الى الكمال
ولكنا جبلنا فى حياة على سعي ولو فوق المحال
وهب ان كان يدفعنا غرور اتغرينا متاهات الخيال
ونحن هنا على درب الأماني نعيش الدهر فى حرب سجال
يموت المصلحون لكل حين ويخلد ذكرهم رغم الزوال
وتفنى المصلحات وليس يبقى سوى آثارهن من الخصال
لقد نجلتك عائشة عظيما كاعظم ما يكون من الرجال
لك (الفكر) المقدس فى البرايا فلا تحزن ومثلك لا يبالي
ومثلك لا تزعزعه العوادي ولو حملت اثقال الجبال
وعن خير النساء رضعت ثديا فكنت (محمدا) اسمى مثال
واحرى ان اضمن بيت شعر اراه مطابقا فى ذا المجال
(ولو كان النساء كمن فقدنا لخيرت النساء على الرجال)
ورب العرش انزلها بقيعا تطوف به الملائك فى جلال
فليست فى الثرى بل فى جنان جوار أبيك شعبان مزالي

حمادي الباجي

مرثية الطاهرة

المغفور لها (عائشة)

ان فارقتنا بامر الله (عائشة) فانها تركت فى الناس ذكراها
(محمد) الفذ من ربته تربية فاقت سواها فكيف اليوم ننساها؟
ام حنون غذته الحب فى لبن فجل من فى الورى بالنبل سواها

لله صالحة فى النسوة ائتلقت ... بحسن خلق فرب العرش زكاها
تسهدت فى ليالى العسر تحضنه ... حتى ارتقى من قلال المجد اعلاها
عاشت تضيء خطى مرقاك شمعتها ... وان هى انطفات فالنور يغشاها
رحمى لها انجبت جيلا يدين هدى ... بفكر خير اديب العصر رحماها
طوبى (مزالى) بام فاخرت امما ... فجنة الخلد عند الله مأواها

محمد بن صابر

هى تحيا على الدوام

إن تمت أم فـد خير السجايا ... بعد أن وجهت وأجنت عطايا ..
فهي تحيا على الدوام وليث ... من بنيها قد اودعته المزايا
وهي في توقه نضال توالى ... سوف يجدي الحمى بحسم القضايا
وهو منها بمنزع سرمدى ... عبقري الايحاء حثيث النوايا
روحه خير ابي غيور ... دون مقصوده مراقي الثرايا
وكذا المحتد السني دؤوب ... ضمن اجياله ، بعيد الثنايا
ولأم الأبطال فضل سراهم ... للعلا المفتدى بكل الرزايا
ولها الرحمة التى سوف تترى ... ما عنت عترة لمرمى الضحايا
ولآل الفقيد صبر وغنم ... من ولي الأقدار رب المنايا
محمد البر ، بر الاه ... للفقيد المرحوم جم الهدايا

البشير الزريبي

لله صالحة في النسوة ائتلقت بحسن خلق فرب العرش زكاها
تسهدت في ليالي العسر تحضنه حتى ارتقى من قلال المجد اعلاها
عاشت تضيء خطى مرقاك شمعتها وان هي انطفأت فالنور يغشاها
رحمى لها انجبت جيلا يدين هدى بفكر خير اديب العصر رحماها
طوبى (مزالي) بام فاخرت امما فجنة الخلد عند الله مأواها

محمد بن صابر

هي تحيا على الدوام

إن تمت أم فـد خير السجايا بعد ان وجهت وأجدت عطايا ..
فهي تحيا على الدوام وليث من بنيها قد اودعته المزايا
وهي في توقه نضال توالى سوف يجدي الحمى بحسم القضايا
وهو منها بمنزع سرمدي عبقري الايحاء حثيث النوايا
روحه خير ابي غيور دون مقصوده مراقي الثرايا
وكذا المحتد السني دؤوب ضمن اجياله ، بعيد الثنايا
ولأم الأبطال فضل سراهم للعلا المقتدى بكل الرزايا
ولها الرحمة التى سوف تترى ما عنت عترة لمرمى الضحايا
ولآل الفقيد صبر وغنم من ولي الأقدار رب المنايا
محمد البر ، بر الاه للفقيد المرحوم جم الهدايا

البشير الزريبي

تحيّة إلى البشير خريّف

بقلم : البشير المجذوب

يــا رفيــق العمــر .. يــا صــديقي ، (*)

لقد طال فراقك وسوف يطول ويطول ؛ ولست أسميه ـ مغالطة للنفس وتمويها ـ غيابا ، فاني مهما التذذت بأدبك ، وطربت أيما طرب لكتابتك ، وهي صورة منك لا أصدق ولا أوفى ، ونفحة من ذاتك لا أمتـع ولا أزكـى ، فان ذلك لا يعوضنى شيئا ، ولا يسلينى الا قليلا عن شخصك الحي ، وكيانك النابض ، وروحك الناضر الفتي ، الشامخ المتعالى أبدا .

أدبك ، نعم الادب ، في بساطته وسلاسته ، في عفويته وصراحته ، في جرأته وتحديه ، في حيويته الدافقة وشاعريته العذبة .. في رجولته الطاغية وانسانيته الحق ... جزل رقيق ، ناعم صلب ، فكه لذيذ ، صارم جاد ، ولا ثقل ولا كثافة ، ولا تحذلق ولا ادعاء ، ولا وعظ ولا ارشاد ، وانما هو التلميح البارع ، والاشارة الدالة ، والايحاء اللطيف الدقيق . طبع قـوى خصـب ، وصنعة كيسة ناضجة ...

كذا أدبك .. نبذة من ملامحه ، وبعض من كل لا سبيل الى تبيان دقائقه وابراز خواصه ، دون فصم وحدته والنيل من روحه وحقيقته ـ وهل يوصف الادب الاصيل أو يعرف ويحد ؟! ـ الا أن هناك شيئا أجل وأعظم ، وأروع وأعجب وأندر وأعز منالا ، فلقد جعلت من حياتك ذاتها صـورة من صـور الفن ، فكأن كل ما فيك وما اليك ، سواء الهيئـة والسلـوك ، والحـركات والافعال ، أو المجلس والبيت ... كل ذلك قد وقع تـوقيعا ، ووزن وزنـا ،

(*) بمناسبة الذكرى الثانية لوفاته .

وضبط إحكاما ، فلا شيء أبغض عندك من النشاز ، ولا أسمج من الفوضى والاضطراب . اتزان ورصانة فى يسر وطلاقة ، ولا أثر البتة لاستكراه أو زمـاتة .

انه منطق لا بل روح التوازن والاعتدال ، والتناسق والانسجام يسود عامة أحوالك ، وينعكس على جميع تصرفاتك وردود فعلك .

فكأنما لم يغنك ولم يشف غلتك فن القول وروعة الكلم ، فابيت الا أن تكون فنانا مرتين ، تصنع الجمال بقلمك ، وتعيشه أعمق ما يكون العيش ، وتجسده « فعـلا » ، وتحققه « وجـودا » .

أنت تعشق اللهو ـ لذة كان أو هزلا ـ وهل أظرف من فكاهتك وأطبع من مزاحك ؟! اللهو ، نعم ! تكاد أن تتخذه مذهبا ودينا ، فلسفـة ومبـدأ حياة ، لولا ما جبلت عليه وارتضيته من شهامـة ونبـل مشاعـر وتصـون واحتشام ، إيمانا بأن الافراط فى أى شىء عدو الكيف والجـودة ، وقـرين السخف والضحالة ، وأن لا خير فى اللهو ما لم يلجمـه الخلـق ، ويهـذبه الذوق ، وتهيمن عليه المروءة .

فانت رجل اللذة تحبها وتهواها ، تتقبلها بجميع جوارحك ، وينفتح لهـا كيانك مشرقا متهللا ، فيقتات منها ويلتمس كنهها ، متذوقا اياها فى شغف واكبار ، فى مثل وقار الشيوخ واريحية الفتيان ، وقد رأيت فيها بابا من أبواب الخير والسعادة ، وطريقا الى الانسان السوى التام ، لا باطـل فيـه ولا زيـف .

وأنت رجل الجد والحزم .. رجل الواقع والمثال ، لا يقنعـك اللهـو ، وإن طاب ، فى مجالس الانس والسمر ، ولا العيش ، وإن جل ، بيـن الصحـف والكتب ؛ فأنت للناس وللاصدقاء تهبهم وتهب لنفسك من وقتك دون حساب، تبش فى وجه كل أحد ، ولا يرد عن مجلسك أحد ، سواء المتأدبون والعوام ، تصغى الى الجميع فى أدب جم وفضول حي لا يفتر ولا يكل ؛ مطلبك وغـاية مبتغاك الانس الرفيع وتفهم الحياة أعمق فأعمق ، تجود بهما عفوا ، وتجتنيهما من كافة جلسائك ، الصغير والكبير ، الخاصى والعامى ، فالانسانية الحـق عندك ـ رغم عشقك للادب وميلك الى أهل الفن ـ ليست حكرا على جنس من الناس دون غيرهم ، ولا وقفا على طبقة أو فئة دون أخرى .

وإصرارك العنيد وحرصك الدؤوب على أن تكون أنت ، أن تحيا كما أنت ، ان تفي لذاتك وصورتك الحق ، تستجليها وتثبتها متجاوزا كل متعارف مصطلح عليه ، وكل مسلم به مفروغ منه ٠ ذا شأنك في الجليل والصغير من الامور .. في أسلوب تفكيرك ، ونمط ذوقك ، في حديثك ومذهبك في التعبير ، في الزى واللباس ، حتى الجلسة ، وطريقة التدخين ، ونوع الشراب ، كل مميز بسمتك الفريدة ، وموسوم بطابعك الخاص .

لم تكن ، دهرك ، كتبيا ، تسجن نفسك بين الورق ، حشرة سخيفة ، صلفة متعاظمة ، ترعى العث والغبار ، وتفرز العث والغبار .

عصاميا كنت ٠٠ انطلقت من ذاتك ، واعتمدت ذاتك ، فانتهيت اليها ٠

كنت عاريا بسيطا ، مستخفا بالالقاب والشهادات ، مستهينا بالمراكز والمناصب ، وانما وراءك تجربة حياة وخبرة عمر ، ومعك موهبة وذوق ، وأى موهبة وذوق ! وفوق ذلك عشق للحياة ليس كمثله عشق ، وهيام بالادب والفن ليس مثله هيام .

عشق للحياة وليس بينك وبينها وسيط أو حجاب ، ولا وصى أو رقيب ، وخبرة عمر بل خبرات حتى لكأنك أشخاص فى شخص واحد ، اذ كنت حينا تاجرا ، وحينا مزارعا وطالبا وأديبا ومدرسا وهوي فنون ، فعرفت أصنافا شتى من البشر ، وعايشت فئات عدة من الناس ، فآمنت بعمل اليد وشرف العمل ايمانك بالقلم والكتاب ، لاتفرق بينهما ، كلاهما يفضى الى الآخر منه يفيد ويستمد ، وعليه يقوم ويتأسس .

لقد كنت مثال البساطة والاصالة فى كل شيء ، والطرافة والتميز فى كل حال ؛ لذا أحييك تحية بسيطة عميقة ، كما تريد أنت أن تكون المشاعر والافكار ، وكدأبك فى كل شيء ٠٠ تحية مرآة لنفسك ٠٠ قبسا منك اليك ٠

8 – 12 – 1985

البشير المجذوب

وَمَنْ لِي بِكَبْشِ الفِدَاءِ فِيمَا بَيْنَكُمَا !؟

قصة : البشير بن سلامه

كَانَتِ الشَّمْسُ حَمْرَاءَ تَتَوَقَّدُ حَيَاةً ، وَتَنْحَدِرُ شَيْئًا فَشَيْئًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ أَقْتَمَيْنِ زَادَتْهُمَا الحُمْرَةُ نُزُوعًا إِلَى الظُّلْمَةِ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَاقِفًا يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الأُفُقِ المُحْمَرِّ وَكَأَنَّهُ مِرْآةٌ تَبْرُزُ فِيهَا لِحْيَتُهُ البَيْضَاءُ ، وَقَدْ جَلَّلَهَا انعِكَاسُ لَوْنِ الشَّفَقِ بِظِلاَلٍ وَرْدِيَّةٍ بَاهِتَةٍ .

كَانَ يَقِينُ ابْرَاهِيمَ أَنَّ الشَّمْسَ لَنْ تُشْرِقَ غَدًا ، إِنَّهَا سَتَخْتَفِي بَيْنَ الأُفُقِ فَيَعَضُّهَا إِلَيْهِ ، وَيَعْتَصِرُهَا لِتَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ فِي الضُّحَى بَيْضَاءَ ، نَاصِعَةً ، زَهْرَاءَ ، وَقَّادَةً ، شَمْسًا أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا البَشَرِيَّةُ .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ هذه لإِسْمَاعِيلَ : يَاوَ لَدِي انظُرْ إِلَى هَذِهِ الشَّمْسِ القَدِيمَةِ قِدَمَ آدَمَ : لَقَدْ عَشِيَتْ عَيْنُهَا حُمْرَةً ، وَاخْلَوْلَقَ بَرِيقُهَا طُولَ رُنُوٍّ . وَشِدَّةَ تَحْدِيقٍ إِلَى البَشَرِ ، يُضَحَّى بِهِ إِلَى الرَّبِّ طَلَبًا لِلنَّجَاةِ ، فِي زَوْرَقٍ يَشُقُّ بَحْرَ الدِّمَاءِ إِلَى شَاطِيءِ الحَيَاةِ ، إِلَى دَيْمُومَةِ البَشَرِ عَلَى أَدِيمِ الأَرْضِ . إِنَّ يَقِينِي أَنَّكَ سَتَكُونُ آخِرَ أُضْحِيَةٍ تُطْوَى شَمْسٌ بها لتبرز الى الناس شمسٌ : البشرُ قُبَالَتَهَا يَتَحَوَّلُ إِنْسَانًا وَالإِنْسَانُ يَحْيَا لِيُؤْمِنَ بِالرَّبِّ بِدُونِ فِدَاءِ أَخِيهِ الإِنْسَانِ .

قَالَ إسْمَاعِيلُ : إن اقتَضَتْ حِكْمَةُ الرَّبِّ أنْ أمُدَّ رَقَبَتِي لِيَحْيَا أخِي الإنْسَانُ ، وَيُعَمَّرَ فِي الأرْضِ ، فَإنِّي لِحِكْمَةِ رَبِّ العَالَمِينَ لَمُمْتَثِلٌ ، وَلإرَادَتِهِ لَصَاغِرٌ . وَلَكِنْ كَيْفَ يَا أبَتِ أكُونُ آخِرَ أُضْحِيَةٍ وَرُؤْيَاكَ تُقِرُّ هَذَا الَّذِي آمنتْ به البشريةُ منذُ الأزَلِ ، وحفظَتْهُ عربونًا لبقائهَا عَلَى وَجْهِ الأرْضِ : لاَ رِضَاءَ لِلرَّبِّ إلاَّ بالفداء ، يُذْبَحُ الوَاحِدُ منَّا عَلَى عَتَبَةِ الايمَانِ ، وَيَنْزِفُ دَمُهُ صَاعِدا إلَى عِنَانِ السَّمَاءِ شِفَاءً وَبَلْسَمًا لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ ؟

يَا أبَتِ ، البَشَرِيَّةُ لَمْ تُولَدْ مُنْذُ الأزَلِ ، وَلَنْ تُولَدَ إلَى الأبَدِ ، مِنْ رَحِمِ الأُمِّ إلاَّ بَعْدَ الوَجَأَةِ الدَّمَوِيَّةِ تَعقُبُهَا الحَيَاةُ الحُبْلَى بِالمَجْهُولِ المُتَقَلِّبِ المُتَحَوِّلِ .

قَالَ إبْرَاهِيمُ : انظُرْ يَا وَلَدِي إلَى الشَّمْسِ كَالجَمْرَةِ تَغِيبُ وَرَاءَ الأُفُقِ ، تَنْطَفِي ، رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، فَيَسْتَحِيلُ النُّورُ إلَى سَوَادٍ ، وَيَهْجُمُ اللَّيْلُ بِجَحَافِلِهِ الدَّكْنَاءِ ، فَيَغْمُضُ مِنْ أبْصَارِنَا وَيُغْرِقُنَا فِي بِحَارِ النَّوْمِ طَرِيقا إلَى المَوْتِ سَبِيلا إلى الرَّبِّ عَبْرَ الرُّؤْيَا ..

قَالَ ابْرَاهِيمُ : الرُّؤْيَا يَا بُنَيَّ ، هِيَ جِسْرٌ يَرْبِطُنَا بِالحَيَاةِ ، بِدَيْمُومَةِ الحَيَاةِ ، هِيَ خَيْطٌ مِنْ نُورٍ دَمَوِيٍّ ، فِي مُدْلَهِمِّ النَّوْمِ يُوقِظُ مَوْتَنَا اللَّيْلِي ، هِيَ ذَرَّةُ الإيمَانِ الوَقَّادَةِ تَتَرَاقَص فِي أجْوَاءِ رَبِّ الكَائِنَاتِ ، في رحمِ الدُّنْيَا لِتُحَبِّلَهَا أمَلا وَرَخَاءً ، وَايمَانا .

وَغَابَتْ بَقَايَا الشَّمْسِ ، وَغَرِقَ الكَوْنُ وَالقَوْمُ فِي سُكُونٍ دَمَوِيٍّ ، نَزَلَ مَعَ النَّوْمِ لِيَجْعَلَ الدُّنْيَا كَوْنًا جَدِيدًا ، شَمْسُهُ خُيُوطُهَا أرَقُّ مِنْ نَسِيجِ الإيمَانِ تَنَزَّهَ عَنِ الفِدَاءِ بِدَمِ البَشَرِ .

وَأَشْرَقَ الصُّبْحُ ، وَكَفَّتِ الشَّمْسُ بِأَنْوَارِهَا إِبْرَاهِيمَ الوَاقِفَ قُبَالَتَهَا ، وَقَدْ بَرَزَتْ لِحْيَتُهُ بَيْضَاءَ نَاصِعَةً ، وَلَمَعَ بَصَرُهُ شَفَّافًا ، لَمْ تُغَيِّرْهُ طَعَنَاتُ النُّورِ المُتَوَالِيَةُ ، طَوَالَ العُقُودِ المُتَتَالِيَةِ ، وَصَاحَ فِي إِسْمَاعِيلَ :

– أَنْ أَبْشِرْ ، لَقَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا ، وَلَقَدْ صَدَقْتَهَا ، وَأَمْرَ رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَكُونَ فِدَاءٌ لَكَ ذَبْحٌ عَظِيمٌ ، لَنْ تَكُونَ يَا إِسْمَاعِيلُ خَاتَمَ الأَضَاحِي بَلْ أَوَّلَ النَّاجِينَ .. أَكْرَمَكَ رَبُّكَ فَأَنْتَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، تُؤْذِنُ بِعَهْدٍ لِلبَشَرِيَّةِ فِيهِ الإِنْسَانُ قَدْ نَجَا مِنَ الذَّبْحِ قُرْبَانًا لِرَبِّ العَالَمِينَ ، وَقَدْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الإِنْسَانِيَّةِ سَاطِعَةً بَعْدَ أَنْ لَفَّ الأُفُقَ آخِرُ شَمْسٍ لِلبَشَرِيَّةِ المُفْتَدَاةِ .

وَسَعَى إِبْرَاهِيمُ يَوْمَهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ حَتَّى وَقَفَ قُبَالَةَ شَمْسٍ نُحَاسٍ ، بَدَأَ يَلُفُّهَا بَيْنَ فَكَّيِ الجَبَلَيْنِ أُفُقٌ ظَامِئٌ أَضَاءَهُ مِنْ بَعِيدٍ ، قَمَرٌ بَاهِتٌ يَدْفَعُ الظُّلْمَةَ بِعَنَاءٍ .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي نَفْسِهِ وَقَدْ جَلَّلَ لِحْيَتَهُ البَيْضَاءَ نُورٌ مَزِيجٌ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ وَضَوْءِ القَمَرِ :

– أَيَا رَبَّ العَالَمِينَ ، هَذَا اسْمَاعِيلُ ، وَهَذَا اسْحَاقُ مِنَ المُحْسِنِينَ ، ادْرَأْ عَنْهُمَا شَيْطَانَ قَابِيلَ وَهَابِيلَ ، بَعْدَ نَجَاةِ البَشَرِ مِنَ الذَّبْحِ قُرْبَانًا لَكَ فَأَحِلْتَ بِحِكْمَتِكَ البَشَرِيَّةَ الآدَمِيَّةَ إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ مُشْرِقَةِ الأَنْوَارِ .

ثُمَّ صَاحَ فِي الأَخَوَيْنِ وَنَبْرَةُ الاشْفَاقِ تَعْلُو صَوْتَهُ :

– وَمَنْ لِي بِكَبْشِ الفِدَاءِ فِيمَا بَيْنَكُمَا ؟ وَكَيْفَ ؟

أسئلة للحلمستان

شعر: أحمد آية وارهام
(المغرب)

[إلى مدير مجلة « الفكر» في عيدها الثلاثين]

... لكم وددت منذ حجج عديدة أن تعانقكم حروفي بمحبة كالشمس في غرة كل شهر ، ولكن انتشار شظايا النفس ، وخراب الجسد ، والعيش بين سكرة الآلام وصحوة الموت ،، كل ذلك حال بيني وبين أمنية التواصل مع مجلة «الفكر» ... هذه القارة الثقافية التي أسستموها بهمة وعزيمة أولي العزم من الرسل والصديقين ، فكانت بحق مفخرة تونس الخضراء خاصة ، ومفخرة العرب عامة . وإنها لمعجزة أن تصمد الفكر - وهي وليدة حدبكم - في وجه الزعازع والتقلبات ، وأن تبلغ في عمر المجد الحضاري ثلاثين حولا ، لا سند لها إلا عبقريتكم وفرادتكم وإرادتكم العالية ... في زمن تتساقط فيه مجلات أخرى تساقط أوراق الخريف مع أنها مشهورة بأسانيدها الرسمية والمادية والمعنوية !!. لست أدري لماذا يقفز الى ذهني قول أبي تمام كلما قرأت لكم أو عنكم :

متوقد منه الزمان وربما كان الزمان بآخرين بليدا

اعذر حروفي هذه ، فهي أدنى بكثير من مقامكم الأعز . إن كلامي في الغبراء وكلامكم في الجوزاء ... ولكن شفيعي هو إعظامي واعتزازي بكم ، وبمجلتكم ، وبأساتذة كرام مبدعين فاعلين في الحياة ، هم بمثابة ضوء في البصر والبصيرة ، وشجرة طيبة في قلب الامة العربية والاسلامية .

فهنيئا لمجلة « الفكر » بالذكرى الثلاثين لميلادها ، وهنيئا لكل العاملين فيها ... وأرجو من الله أن يمتد عمرها في الابد كما الشمس والقمر .

أيها الوالد الروحى الاكرم :

أبعث الى « الفكر » بقصيدة تفعيلية عنوانها « أسئلة لحلمستان » أرجو أن تنال رضا هيئة التحرير . علما بأنى أصدرت مجموعة شعرية فى العراق بعنوان « زمن الغربة» ونشرت انتاجى فى أغلب الدوريات العربية كالآداب ، الاديب ، الاقلام ، الشعر ، الحياة الثقافية ، إبداع ، آفاق ... وكتبت دراسات جامعية حول شعرى ، واختير بعض منه فى الانطلوجيا التى أصدرتها جامعة مدريد بالتعاون مع جامعة الرباط .

وتقبلوا فائق امتنانى وعرفانى .

لِتَصْهَلَ فِي فَيَافِي العُمْرِ أَسْئِلَةُ النَّدَى
هَذَا المُرَاقُ عَلَى الرَّصِيفِ طُفُولَةٌ
لَمْ أَدْرِ كَيْفَ سَقَى بِهَا الإِسْفَلْتُ ...
زَرْعَ سُعَاره !!

كَيْفَ احْتَسَى مِنْهَا الظَّلاَمُ ....
شُعَاعَهَا !! .

يَا أَيُّهَا الوَرَقُ المُكَفَّنُ فِي غُبَارِ الرِّيحِ ؛
لاَ تُسْنِدْ هَوَاكَ إِلَى ذِرَاعِ الصَّمْتِ ،
لَوْ صَلْبِي تَهَلَّلَ بِالوِلاَدَةِ ...

لَمْ تَكُنْ غَيْرَ الرُّؤَى
يُؤْوِيكَ فِي حُجُرَاتِهِ .. قَبَسًا
وَمِنْ أَحْدَاقِهِ .. يَسْقِيكَ ،

أَنْتَ اللَّحْظَةُ العَذْرَاءُ
سَمَّتْهَا الجُرُوحُ
بِعُشْبَةِ الإِغْرَاءِ .
حَوَارِي الفَتْكِ تُفْرِزُ عِشْقَهَا المَأْجُورَ ،

لَيْسَتْ شيمَةُ الأجْدَاثِ فَتْحَ نوَافِذِ الأسْمَاءْ
فَمَا للنَّارِ تَفْتَحُ مَوْسِمَ الإِصْغَاءْ ؟!

★ ★ ★

لِبِئْتِ فِي شِغَافِ السِّرِّ
أزْحَفُ ...
وَالمَدَى خَلْفِي هَشِيمٌ ،
تَهْطِلُ الأيَّامُ جُرْحاً
فِي يَدِي
يَهْتَزّ فَوْقَ النَّوْحِ
مِثْلَ البَوْحِ
هَلْ عَرِيَ التُّرَابُ مِنَ التُّرَابِ ؟!
وَهَلْ صُرُوحُ الرُّوحِ رَمَّمَهَا الغِيَابُ ؟!
فَمٌ يَجْثُو عَلَى الأُذُنِ
وَقَلْبٌ فِي أَثِيرِ الإِحْتِلاَبِ ،
صَدَى البَصِيرَةِ لاَفِحٌ
فَمَنِ الغَرِيبُ مِنَ القَرِيبِ ؟!
يَقُومُ مِنْ أشْلاَءِ مَا يَجْرِي
كِتَابُ المَدِّ وَالإِفْضَاءْ ،
لِفَلْسَفَةِ الدَّمَارِ بَرِيدُهَا الأحْوَى
« لحُلْمِسْتَانَ » تَرْفَعُ وَجْهَهَا الأشْيَاءْ

أحمد آية وارهام

(مراكش)

الفكر الديمقراطي عند الأستاذ محمد مزالي

بقلم : محمد الصادق دمق

أن يحلل المفكر مبادىء الديمقراطية ومفهومها ومسارها التاريخي فأمر مهم، أما أن يعتمد أفكاره التي تنبعث من كيانه لتحقيق الديمقراطية في بلاده فأمر رائع ، وحين يجمع بين المقولات النظرية وموقع الفعل لتجسيد حركة الواقع بما تحمل من وعي متميز وصيرورة دائمة الى ما هو أسمى لتركيز أسس الديمقراطية فذلك هو بلوغ مستوى أعلى مراتب الانسانية والريادة .

ومن هذه المنطلقات كانت الممارسات الديمقراطية للاستاذ محمد مزالي على المستويين النظري والتطبيقي منذ الخمسينات .

ان تحليله للديمقراطية اضاءات للعلاقات التي تحكم المجتمع والناس ، اضاءات مشعة تفضي الى الاكتمال والنضج وترسيخ الكيان ، تحاليل فيها من المنطق دقته ، ومن البعد وضوحه ، ومن الذاتية وعيها ، ومن الواقعية ما يجعلها قابلة للتطبيق في مناخ اجتماعي وسياسي اكتملت مقومات سيادته واستقلاله .

ان الابعاد النظرية والتطبيقية للديمقراطية عند الاستاذ محمد مزالي شملت المستويات الوطنية والقومية والانسانية لتنصهر كلها في بوتقة الشخصية التونسية ضمن رافدها المتميز المترابط مع التيار العربي الاسلامي المتأصل والمتجذر في نبع القيم العليا مع تلاقيه بالتيارات الانسانية التي تحمل نفس السمات رغم تنوع الخصوصيات والمميزات .

فما هي المنطلقات الديمقراطية عند الاستاذ محمد مزالي ؟ وما هو المنهج الذي انتهجه في تطبيق القناعات والمبادىء الديمقراطية ؟.

ان الايديلوجية تستلزم أن يحلل المفكر الواقع لمعرفة خصائصه وطبيعته حتى يتمكن من ايجاد الحلول الكفيلة بتغيير أوضاعه التى تجاوزها الزمن ولم تعد متماشية مع الرؤية الحضارية لابنائه الذين تشبعوا بمفاهيم حضارية جديدة جذرها فيهم زعماؤهم الوطنيون الذين أنهالوا على الاوضاع المتعفنة هدما واجتثاثا حتى انهار ما كان صرحا مشيدا على الانبتات والتغريب والتهميش .

لذا لم يكن تعامل الاستاذ محمد مزالى فى تفكيره الديمقراطى مع النصوص ليفضى الى الحصول على وثيقة نظرية خيالية ، وانما كان تعامله مع الفكر الانسانى فى مساره الكفاحى من أجل تحقيق الديمقراطية مع اضافة طرافة للموضوع تتمثل فى تطبيق المبادى الديمقراطية على المجتمع التونسى حتى لا يكون مجتمعا متفرجا مطلعا على ما يدور فى العالم من سعى لاثبات الذات البشرية .

لم يرد الاستاذ محمد مزالى أن يكون هاضما لمقولات أثبتها مفكرون عبر التاريخ البشرى ، وانما وطن العزم على ان يكون للكلمة الفاعلة نصيرا مع انتاج ابداعات نظرية وعملية فى الميدان الديمقراطى لاثبات ما للفكر التونسى من قدرة على الخلق والانتاج .

ان المتتبع للمنطلقات الديمقراطية عند الاستاذ محمد مزالى يراها متماشية مع الفكر الانسانى ، كما أنها لم تتخل لحظة عن الاطار الوطنى التونسى اثباتا للذات واعتزازا بالشخصية التونسية ، فقد كتب تحت عنوان « تونس فى درب الديمقراطية » ، فقال : « ذلك معناه أن الشعب صاحب السلطة المطلقة ومصدر السيادة الكاملة ... ومعناه أيضا أن الامة تتجه اتجاها ديمقراطيا واضحا لا التواء فيه ولا غبار عليه .. بذلك تحافظ الامة التونسية على اسلامها وعروبتها فى أشرف معانيهما وأنبل مقاصدهما .. وبذلك تكون قد ربطت بين ماضيها المجيد وحاضرها الباسم ومستقبلها الزاهر » (1) .

هذه المقولة ترجع الى سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف ، ولكنها اضاءت للدرب الديمقراطى الذى انتهجته تونس حاضرا ومستقبلا ، انطلاقة

---

(1) الفكر السنة 1 ـ العدد 7 ـ 1956 ـ (من وحى الفكر ص 22 الطبعة الثانية) .

واعية لحتمية المسار الديمقراطي رغم ضبابية المصير في ذلك الحين .. استقلال هش ، وأصابع اخطبوط استعماري تنخر في الخفاء ، واستعمار مقنع يتربص بنا ريب المنون ، وشعب ليس له تجربة في ممارسة أصول الحرية الا ما تمكن من غرسه في النفوس الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد (2) من معاني الاباء والكرامة طيلة ربع قرن في ذلك العهد .

في تلك الفترة التي كانت فيها الطاقات الوطنية التي ساهمت في تحرير البلاد تتلمس الطريق لرسم الخط الحضاري لارساء دولة وطنية نجد الاستاذ محمد مزالي يطرح الرؤية الديمقراطية لتكون الارضية الصلبة لاقامة حكم وطني قادر على الاستجابة لشعب متحرر . وقد وضع شروطا للتمكن من اقامة حكم ديمقراطي .

والحرية عنده هي الشرط الاول لتطبيق الديمقراطية . فالاستقلال في نظره الرشد والمسؤولية ، هو ثمرة النضالات وتواصل المجابهة والتحدي .

والاستاذ محمد مزالي يرى ان للمد الديمقراطي تواصلا رغم الخيبات والنكسات التي اعترت الانسانية في نضالاتها من أجل تحقيق المبادىء الديمقراطية لان تحقيق المعادلة المتمثلة في تجسيم التوازن بين حرمة الفرد وسلطة المجتمع والدولة منعب يتطلب وعيا وتفانيا في خدمة الغير ونكران ذات الى حد التضحية .

والديمقراطية في نظر الاستاذ محمد مزالي : « .. عقد مبرم بين جميع أفراد المجتمع الاحرار يرومون تأسيس هيئة اجتماعية متحضرة انما تستمد قوتها وسلطانها منهم » (3) .

وحديثه عن الديمقراطية في مفهومها وأركانها والظروف المحيطة بتحقيقها يتسم بالاتزان والموضوعية بعيدا عن الشعارات البراقة الخلابة ، وعن الشعور بالتعالي أو الكبرياء .

---

(2) الحزب الاشتراكي الدستوري حاليا .

(3) ص : 75 و 76 من كتاب الديمقراطية للاستاذ محمد مزالي ـ الطبعة الاولى مارس 1956 .

انه يحدثنا عن الديمقراطية كمكسب غالي الثمن صعب المراس عزيز الجانب ساهمت الانسانية منذ أقدم العصور في تجسيمه بصور مختلفة وطرق شتى .

ان النهج الذى تناول به الاستاذ محمد مزالي المسار الديمقراطي نهج علمي يعتمد الاستقراء والاستنتاج بعيدا عن الرفع المفرط من شأن بعض المفكرين أو الحط من أهمية مفكرين آخرين ، لان حلقات المسار الديمقراطي هي حلقات متماسكة قد يطول الزمان أحيانا دون أن تحرز على انتصارات جديدة ، وقد يعتريها الجمود ، وقد تصيبها الخيبات والنكسات ، ولكن رصيدها متواجد حتى يظهر أحد الفلاسفة أو المفكرين ليجلوا عن معدنها ما أصابه من صدإ عن طريق الاضافات المنطقية أو التطبيق الفعال .

هذا المنهج المنطقي في معالجة قضية الديمقراطية جعل الاستاذ محمد مزالي يبين في كتابه : « الديمقراطية » (4) مجهودات أعظم المفكرين الذين تناولوا موضوع الديمقراطية بالبحث مؤيدين وجودها وتطبيقها نظرا الى ان للديمقراطية معارضين وأعداء ، فمنهم من ينادى بالحرية المطلقة ، ومنهم من ينادى بالحكم الفردى ، وفي كلتا الحالتين يوجد عدم التوازن . ففي الصورة الاولى تنعدم سلطة المجتمع والدولة ، وفي الصورة الثانية تمحى شخصية الفرد ويصبح الحكم ديكتاتوريا ، الامر الذى جعل الديمقراطية وسطا بين حدين متطرفين ، فهي فضيلة بين رذيلتين لانها توفق بين المتناقضات ، فهي تضمن حرية الفرد في حدود متفق عليها ، وتمكن الدولة من ممارسة نفوذها دون ظلم أو حيف أو ارهاص أو ارهاب .

والاستاذ محمد مزالي ليس من المؤمنين بالديمقراطية كفلسفة أو كتنظيم نظرى فقط ، بل يؤمن ايمانا مطلقا بوجوب تطبيقها فيقول : « واذا عرفنا « فلسفة » فلسفة الديمقراطية باعتبارها شيئا يجب ان يتحقق ، من الطبيعي أن نتساءل كيف يمكن أن يتحقق ذلك الشيء » .. (5) .

والمهم ان المفكر الاستاذ محمد مزالي لم يبحث في كيفية تطبيقها بصورة مطلقة ، وانما التزم بايجاد الحلول في كيفية تطبيقها بتونس بداية من فجر

---

(4) راجع كتاب « الديمقراطية » للاستاذ محمد مزالي ـ الصادر عن سلسلة كتاب البعث مارس 1956 .

(5) ص 16 من كتاب « الديمقراطية » .

الاستقلال عندما توفر احد مقومات الديمقراطية وهو الحرية ، حيث ان الاستقلال هو الرشد والمسؤولية ، هو ثمرة النضالات وتواصل المجابهة والتحدى ، هو حصيلة القوة لجبارة المتولدة عن الروح الواعى للشعب ، هو الوفاء للذات والذود عن الكيان ، هو الحرية والانعتاق والانطلاق فى أروع مظاهرها .

وماهية الديمقراطية تتضمن استمداد السلطان من الهيئة الاجتماعية ، واذا انعدمت الحرية انتفت القدرة على اتخاذ القرار . فالترابط بين الديمقراطية والحرية ترابط جدلى حتمى حيث لا تولد الديمقراطية الا فى أجواء الحرية .

والاستاذ محمد مزالى ينظر الى الحرية من مستويين : مستوى الفرد ومستوى المجموعة .

فتحقيق الذات واكتمالها واكتساب صفة الانسانية لا تكون الا بالممارسة الفعلية للحرية ، بها يتخلص الانسان من حيوانيته وسلبياته ويرتقى مدارج السمو والعظمة ، فهى جزء من الكيان البشرى ، الامر الذى جعل الانسان يدافع عن حريته الى حد الاستشهاد : « هناك شعور قوى عارم بأننا ولدنا أحرارا ولا يمكن لأية قوة ـ مهما كان مصدرها ـ أن تسلبنا حريتنا » (6) .

وبالنسبة للمجموعة فلا قيمة للحرية اذا لم تشمل كل أفرادها بقطع النظر عن كل التصنيفات والتقسيمات والدرجات والحدود : « لا معنى للحرية ما لم يكن حظ الناس منها واحدا وما لم يتمتع بها البشر أجمعين حيث وجدوا وأنى عاشوا وأيا كان لون بشرتهم ونوع الدم الذى يجرى فى عروقهم » (7) .

حين يحلل الاستاذ محمد مزالى جانب الحرية فى تركيبة الديمقراطية نتبين أنه المناضل المفكر الذى يجاهد من أجل تحقيقها ، فقد عاش فترة شبابه فى عهد سيطر فيه الاجنبى على بلاده فشعر باستلاب الذات وسيطرة

(6) ص : 85 من كتاب « الديمقراطية » .
(7) ص : 85 من نفس المصدر .

الاجنبي ، الا أنه لم يستكن ولم يستسلم ، وانما ناضل سياسيا وفكريا من أجل تحرير وطنه ، وفي تحرير الوطن تحقيق لحرية الذات والمجموعة وهو بذلك يعبر عن رسالة المثقفين الذين يصنعون القرار في أوطانهم ، ويكون رمزا لمن يؤمن بالمبادىء السامية والقيم العليا ، ولا يكتفي بذلك وانما يجاهد صابرا صامدا مرابطا من أجل تحقيقها حسب الاشكال الوطنية البعيدة عن التبعية والشعارات الجوفاء : « وعلى المثقفين كذلك ان يتجاوزوا الاعتبارات الشكلية والجدل العقيم ، فينطلقوا من واقعهم وحياة شعبهم لتقييم أمورهم وتحديد رسالتهم ومنزلتهم في مجتمعهم ، وأن يحذروا من « النماذج » الاجنبية المستوردة في حكمهم على الاشياء ، وبذلك يكونون (مشاركين لا متفرجين ، ايجابيين ، لا سلبيين) (8) .

ومن مظاهر الايجابية ترشيد الحرية ، فالحرية لا تعني التصرف المطلق الذي لا حدود له ، وانما هي الحرية المسؤولة ومنها حرية الاختيار ، فالعقد الذي يلتزم المواطنون بتطبيقه يكون الدستور وجهه التطبيقي مع ضرورة الفصل بين السلطات الثلاثة حتى يمكن تطبيق الديمقراطية .

ان التوجه الديمقراطي عند الاستاذ محمد مزالي هو توجه انساني تطبيقي واقعي يأخذ بعين الاعتبار الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للبلاد حتى يقع التدرج المتزن الواعي نحو الديمقراطية الفعلية بعيدا عن الخيبات والنكسات .

وقد تمكن من جعل مشاغله الوطنية ضمن الدوائر الانسانية ، فالديمقراطية في وطننا لا تنفصل عن المفهوم الديمقراطي الانساني ، ومع ذلك لها ميسمها وخاصياتها النابعة من الشخصية التونسية التي تفرض ان تسود المساواة بين كافة المواطنين ، وهذه المساواة هي ركن من الاركان الضرورية لتوفير المناخ الديمقراطي .

وفكرة المساواة هذه مقامة على الاساس المتمثل في الدور الاجتماعي الذي يقوم به كل فرد من أفراد المجتمع ، معنى ذلك أن كل واحد منا في حاجة ماسة الى خدمات الغير مهما كان نوعها ومستواها ، وضرورة التكافل وتبادل الخدمات تفرض مفهوم المساواة ، فلا يعقل أن يكون الفرد أعلى

---

(8) ص 14 من كتاب : « وجهات نظر » للاستاذ محمد مزالي ـ الطبعة الثانية ـ .

مقاما من غيره لانه يقدم خدمات قد يراها ارقى من غيرها او لانه ينتمي الى طبقة قد يظن انها أرفع من سواها لانذلك يؤدى بنا الى الطبقية وهو ما لا يتناسب مع مفهوم الديمقراطية .

فالدور الاجتماعى مهما كان فى مستوى رفيع هو تكليف لا تشريف وله أعباء قد تكون أثقل ومستويات قد تكون أشمل ، ومع ذلك فلا بد ان يشعر القائم به براحة الضمير حين يؤدى أجل الخدمات الى المجتمع ، وبرضاء النفس حين يساهم فى تقدم وطنه دون ان يكون ذلك سببا فى غرس مركب الاستعلاء فى نفسه فيتعالى ويرتفع على الغير ويحيط نفسه بهالة من التميز المزيف الذى يكون سببا عند انتشاره فى عرقلة رسوخ مفهوم الديمقراطية وفى هذا السياق يقول الاستاذ محمد مزالى : « على أن المساواة ليست تستمد حرمتها وهيبتها من شعور الناس بذلك فحسب ، بل ان الضمير الاخلاقى يضعها وضعا ويفرضها فرضا لانه يضع حرمة الانسان فوق كل اعتبار ويرفع قيمته الى الذرى .. » (9) .

وبما أن الاستاذ محمد مزالى ممن يرون حتمية اثبات مبدإ المساواة على أساس ضرورة الدور الاجتماعى الذى يقوم به الانسان ويرفض مبدأ الاعتماد على اقرار القيمة الاجتماعية على أساس الانتماء العائلى الشريف أو الى قيمة الاملاك والاموال المكتسبة فانه يطرح الحل البديل ويرى أن العمل هو الذى يكسب الانسان انسانيته ويجعله جديرا بتحمل الرسالة التى أبت السماوات والارض حملها وقبلها هو : « .. ليس الانسان ما ولد أو ما كسب بل ما عمل وقدمت يداه » (10) .

فالعمل جوهر واحد لا يتجزأ واصناف الاعمال هى صور لذلك الجوهر ، هى فيض متواصل له دون أن نسلط عليها الاحكام المعيارية التى تبنتها مع الاسف المجتمعات نتيجة ترسبات تاريخية متأتية من أنظمة اجتماعية توالت قديما وامحت وبقيت منها تلك الاحكام .

قد يتصور البعض أن فكرة المساواة بديهية لا ينازع فيها أحد ، فى حين أن الواقع يثبت العكس حيث نجد العديد من المفكرين والفلاسفة يقفون ضد

---

(9) ص 79 — 80 من كتاب « الديمقراطية » .
(10) ص 80 من نفس المصدر .

هذه المساواة ويرون فى « النخبة الذكية » ملاذ البشرية ومنقذتها ، وهى التى يجب أن تتصدر الزعامة وبالتالى هى أرقى من غيرها فى تسيير الامور وممارسة الحكم .

ان المستقرىء لمسار التاريخ يلاحظ بوضوح أن مفهوم المساواة ينتصر ويوالى انتصاراته على مفاهيم الطبقية بفضل التضحيات والثورات المتوالية . وعن هذا التطور يقول الاستاذ محمد مزالى : « واتجاه هذا التطور يدل على أن حظ البشر منها يتزايد باستمرار . فالسدود التى بين الطبقات تنهار شيئا فشيئا وتتداعى وكل ثورة كسب وغنم وخطوة الى الامام » (II) .

ان الانتصار للديمقراطية والتشبث بمبادئها والايمان بحتمية تطبيقها مفاهيم متجذرة فى تفكير الاستاذ محمد مزالى فكتاباته التى ظهرت منذ الخمسينات الى الآن فى خط واحد ترى الديمقراطية قدر العالم المتحضر المتطور مهما كانت ضريبتها غالية ومهما كانت ممارستها صعبة .

ان الثوابت التى يقرها المنطق ويقبلها العقل لارساء قواعد الديمقراطية غير كافية لضمان استمرارها لان حقوق المواطن اذا لم نربطها بواجباته قد تؤدى الى مزالق تجاوز الحدود ، الى الفوضى والميوعة وعدم الانضباط ، فى حين ان العلاقة الجدلية بين هذه الحقوق والواجبات تضمن تساوى طرفى المعادلة ، ومن ذلك تربية أفراد المجتمع على أداء واجباتهم مع تمتعهم بحرياتهم ، فأداء الواجب فى نظر المواطن الواعى فرض عينى لا يسقط عنه اذا أداه غيره ، بل يجب أن يؤديه بنفسه عن طواعية ورضاء نفس وبحماس واقبال ، ويثور حين يحرم من ذلك الواجب وينقم على نفسه اذا تخلى عنه ويبذل قصارى الجهد لتحقيقه . تلك التربية الوطنية السليمة هى التى تكبح جماح النوازع الذاتية وتضمن للفرد سلامة التفكير والسلوك .

ومن هذه الواجبات التى يجب أن يقدسها الانسان واجب الانتخاب الذى يمكنه من المساهمة فى الحكم عن طريق الاختيار السليم الموضوعى ، فلا يمكن أن يكون كل الناس حكاما ونوابا للشعب وممثلين له ، الا أن الاختيار هو مساهمة فى التسيير والاقتراح والتقرير والتنفيذ .

(II) ص 8I من كتاب « الديمقراطية » .

ان المنهج الديمقراطى عند الاستاذ محمد مزالى يتسم بالوضوح والمنطق والواقعية ، فهو يرفض التغنى بالشعارات الجوفاء وينبذ اللجوء الى التلويح باللوائح التى تبهر الانظار فى حين انها خالية من كل محتوى يجعل منها محطات حضارية يمكن للشعب أن ينطلق منها لتحصين الديمقراطية ضمانا لاستمرارها وديمومتها .

ثم ان واجب الانتخاب لا بد من توفير ضمانات له حتى نجنبه الهزات ، وهذه الضمانات لا تكون الا عن طريق اقرار الدستور فى البلاد .

فالدستور هو الحكم الفيصل بين كل افراد الشعب ، هو المرجع عند التشريع والتنفيذ والتقاضى ، هو المنظم للعلاقات بين السلط ، والمنظم للعلاقات بين السلطة وافراد المجتمع ، وهو المحدد للحقوق والواجبات وهو لن يكون بتلك الاهمية والقيمة الا اذا ربيت الاجيال على احترامه وعملت كل من المؤسسات الدستورية وافراد الشعب على تنفيذ بنوده ، وكل حياد عنه يعتبر جريمة اخلاقية تدخل تحت طائلة القانون .

ان ترابط ركائز الديمقراطية أمر حتمى حتى لا يختل التوازن وحتى لا ينهار الصرح الذى شيده الشعب بكفاحه وتضحياته .

ان التربية المدنية السليمة تجعل المواطن ينظر الى الامور بمنظار فيه تحقيق للمنفعة الشخصية ضمن اطار الشرعية والقانون مع اعتبار ما هو حق احيانا واجبا حتميا . ومن ذلك اعتبار العمل فى بعض الظروف واجبا مقدسا لا يمكن التخلى عنه .

فالانسان الذى بذل الشعب والدولة ــ من أجل تثقيفه ــ الجهد والنفس لا بد أن يعتبر العمل واجبا وطنيا الى جانب كونه حقا مشروعا .

فالمهندس والطبيب والفنى السامى والمخترع والمكتشف والمفكر وغيرهم لهم وظائف ضرورية لرقى المجتمع ، وفى هذه الصورة لا بد من انصهار المنفعة الذاتية فى بوتقة المصلحة العامة .

ثم ان العمل فى العديد من الظروف يعتبر واجبا وطنيا مقدسا خاصة اذا تعرضت البلاد او يمكن أن تتعرض الى مخاطر حين تعطيل العمل أو الانقاص من الانتاج والانتاجية .

فالمصلحة العليا للوطن قبل كل شيء والجهاد من أجل تحقيق مناعته وعزه أمر ضروري تهون أمامه كل المصالح الشخصية وتمحى أمامه كل الحسابات الخاصة .

وبهذا التمشي المنطقي يصبح البعض مما هو حق واجبا ومن ذلك التعلم والارتفاع في مدارج العرفان كلما كانت الطاقات الذهنية قادرة على الاستيعاب ، فالتلاميذ الذين حباهم الله ذكاء والطلاب الذين لهم امكانات فكرية هائلة يدعوهم الواجب الى مواصلة البحث والدراسة حتى يصلوا الى أرقى المراتب التي تجعل منهم مكتشفين ومخترعين فيمكنوا أمتهم من أن تكون في مقدمة الدول المتحضرة التي تحكمت في التكنولوجيا العصرية وتكلل جبينها عن طريق أبنائها باكليل الفوز والفخر : « من واجب المواطن وقد أنهى تعلمه واستكمل ثقافته أن يقوم بواجبه كمثقف في مجتمعه فينكب عليه درسا وتحليلا ويتصدى لعلاج مشاكله وقضاياه من دون ان يجد الصلف الفكري المقيت اليه سبيلا » (I2) .

هذه بعض ملامح المجتمع الديمقراطي سلوكا وممارسة وعقيدة في نظر الاستاذ محمد مزالي الذي لم يكتف بالايمان النظري بوجوب تحقيق الديمقراطية في تونس ، وانما عمل ويعمل منذ الاستقلال على اثبات هذا المطمح الانساني النبيل مساهمة منه في انجاح النهج الديمقراطي في بلادنا .

ويقيني أن الممارسة الفعلية للعمل الديمقراطي تزيد الاتجاه وضوحا والمبادىء رسوخا وهذا ما نلاحظه بالنسبة للعلاقة بين الاستاذ محمد مزالي والمنهج الديمقراطي ، فقد ساهم بنضاله في تحرير بلاده وتخليصها من هيمنة الاستعمار ومخلفاته ثم ان موقع المسؤولية مكنه من تطبيق ما آمن به .

وللتطبيق مراحل مترابطة وحلقات متواصلة تتطلب التأني والخبرة والصبر ووضوح الرؤية والايمان العميق والقدرة على مواجهة الصعاب وتحدي التعنت والجهالة الجهلاء .

(I2) ص I06 من كتاب « الديمقراطية » .

اعتقادی أن هذه الخصال قد توفرت فى المفكر المسؤول الاستاذ محمد مزالى والاعمال الديمقراطية شاهدة على ذلك ، وتوفير المناخ لتركيز الديمقراطية دليل قطعى متوفر منذ سنوات .

فالوعى بالديمقراطية يفرض على المثقف ان يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه شعبه ، وقد شعر الاستاذ محمد مزالى بنبل الرسالة ، رسالة المثقف الواعى فساهم فى تحرير تونس ثم شرع فى تنفيذ بعض ما تقتضيه الديمقراطية فغامر مغامرة المؤمنين بالنجاح وأصدر مجلة « الفكر » فى غرة اكتوبر سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف ايمانا منه بمد الجسور بين أبناء تونس من ناحية وبين اخوانهم مشرقا ومغربا من ناحية ثانية ويقينا منه بأن تونس قادرة أن تثرى التيار الثقافى العربى الاسلامى بانتاج ابنائها الذى له صفات مشتركة مع غيره وله كذلك طابعه المميز وهو ما أطلق عليه التونسة التى هى اصالة وتفتح .

ومن ناحية ثانية فان شعبا جاهلا عائشا على فتات موائد الغير ثقافيا وحضاريا لا يمكن له أن يمارس الديمقراطية ولا أن يجنى من ثمارها اى خير فالجهل عدو الد للديمقراطية ، فهو الانغلاق والجهالة والتعصب والفئوية وعدم ادراك المصلحة الخاصة والعامة وسرعة الغضب والعجز ، وهذه صفات لعمرى لا تمكن الانسان من التحليل والتمييز والاختيار لان الديمقراطية وعى بالمكانة والمنزلة ، والديمقراطية ضبط للنفس ، والديمقراطية تعال عن النزوات الشريرة والطبائع الخبيثة ، وهذه النزوات والطباع لا يمكن أن تجتث الا حين يبلغ الانسان مرحلة النضج الثقافى والحضارى ، وهذا النضج لا يتم الا عن طريق الدراسة وبالتالى الانتاج الفكرى لطرح الرؤى الخاصة وبسط التجارب وتبادل الخبرات عن طريق الحوار الحضارى المجدى .

ان افساح المجال واستمرار افساحه أمام المبدعين ليكتبوا كلمتهم الحرة البناءة مهما كانت اتجاهاتهم الفكرية ــ فى وقت لم يكن يؤمن فيه الكثيرون بقدرتنا على الخلق والابداع ــ لعمل من الاعمال الرائدة التى هيأت الارضية لممارسة الديمقراطية الحق .

ثم ان الاستاذ محمد مزالى معروف منذ الخمسينات بندائه الدؤوب الى ضرورة التعريب وسعيه الذى لا ينى فى تطبيقه على المستويين الادارى

والتربوى وقد سارت تونس أشواطا جبارة فى هذا الميدان حتى أصبح بالنسبة الينا أمرا عاديا وكأنه لم يكن فى يوم من الايام مشكلة فى حين أن له أعداء ومناوئيه من ضعاف العزائم وذوى التفكير الضيق الذين يرون اللغة العربية عاجزة عن مسايرة ركب الحضارة فى حين أنها قادرة ـ ما دام ابناؤها قادرين ـ على الصمود أمام التحديات الحضارية مهما كان مأتاها ومهما كان نوعها .

وفى التعريب اثبات للذات ، والديمقراطية تتطلب استقلالية كاملة واعتزازا بالذات الوطنية للتمكن من الخلق والابداع والتحكم فى المصير ، فالذين يدورون فى فلك الغير وهم هوامش لا هوية لهم لا يستطيعون أن يفكروا فى ممارسة نمط من الديمقراطية يتماشى مع طبيعة وطنهم ويستمد أصوله من انماط تفكيرهم .

ثم ان الاستاذ محمد مزالى معروف بدعوته الملحة الى التحصن بالعلوم والتقنيات الحديثة وهذه الحصانة لا تتأتى فى نظره الا بتشجيع البحث العلمي الذى هو طريق الى الاكتشاف والاختراع ، ومجهودات الاستاذ محمد مزالى لا يمكن التغافل عنها فى هذا الميدان حيث ساهم فى توفير التجهيزات الاساسية للبحوث العلمية ، وشجع العلماء والباحثين التونسيين حتى يتمكنوا من انتاج ما يبرهن على قدرة الخلق والابداع عندهم .

ان المناعة المادية والمعنوية ضرورة من ضرورات تركيز الديمقراطية الدائمة فى البلاد .

ومع هذه المناعة لا بد من تمكين المثقفين من التعبير عن وجهات نظرهم ومواقفهم عن طريق الكلمة والحرف ، وخير شاهد على ذلك كثرة المجلات والجرائد التى تصدر فى بلادنا منذ سنة احدى وثمانين وتسعمائة والف وهى تعبر عن موقف أقصى اليسار الى مواقف أقصى اليمين مرورا بمن هم معتدلون أو محايدون .

فليس سهلا ان نجد الصحافة الحرة فى بلد من البلدان ، وليس أمرا عاديا أن يرضى النظام بالنقد ولفت النظر ، فذلك يتطلب من المسؤول أن يكون متشبعا بالمبادىء الديمقراطية .

والاستاذ محمد مزالي الى جانب ايمانه المطلق بحرية الرأى والتفكير واتخاذ المواقف ما دامت لا تتجاوز مصلحة البلاد العليا ولا تعرضها للاخطار الداخلية والخارجية ولا تعرض الوحدة القومية الى التصدع البغيض الذى قد يكون سببا من أسباب الانهيار وضياع المكاسب الديمقراطية التى حصلنا عليها فانه يروض الكثيرين على تقبل الاصول الحقيقية للديمقراطية ، لان الديمقراطية ليست كما يراها البعض فى تتبع النقائص المفتعلة أو احصاء الاخطاء البسيطة التى تفرضها مسيرة التنمية أو التضليل واختلاق الاكاذيب لاحداث الفوضى والبلبلة واحراز نصر سياسى على حساب النظام القائم والمصلحة العليا للوطن ، انه يروضهم بالفعل ويلقنهم دروسا فى التشبث بالديمقراطية رغم صعوبة ذلك ورغم العناء والجهد لانه يقابل حربهم الشعواء على الديمقراطية بالمضى قدما فى ممارستها دون اللجوء الى الاساليب التى يلجؤون اليها والتى هى عنوان من عناوين عداء الديمقراطية ، وهى الاستفزاز واستعمال العنف وجر النظام الى مقابلة ذلك بالمثل .

ان التمسك فى الاعصاب واقرار مفهوم الحوار والتشبث بالتوعية ونبذ كل أصناف العنف مهما كان مأتاه ومصدره لدليل قاطع على التفانى المطلق فى اقرار مبدا ممارسة الديمقراطية .

ومع التطبيق الفعلى لممارسة الحريات السياسية والاجتماعية ـ وهو مظهر من مظاهر الديمقراطية ـ فان صيانة المهام التى تقوم بها السلط الثلاث التى يقوم عليها النظام الديمقراطى فى بلادنا أمر أثبتته الايام والمواقف . ففى الساعات الحرجة والمواجهات الصعبة نجد الاستاذ محمد مزالى ينادى بأن يقول القضاء كلمته العليا دون تدخل فى مشمولاته وقراراته ودون التأثير عليه من أية سلطة من السلط .

كما أن السلطة التشريعية هى المرجع فى كل ما اعترض البلاد من مشاكل وصعوبات للتشاور أولا وأخذ القرار ثانيا حسب ما يقتضيه دستور البلاد

وبذلك يثبت المفكر المسؤول الاستاذ محمد مزالى أن الديمقراطية ممارسة فعلية واعية ذكية تتطلب رباطة الجأش وهدوء الاعصاب ونفاذ البصيرة خاصة عندما تشتد المعضلات وتعظم المشاكل التى لا يمكن أن يسلم منها بلد يسير نحو النمو والاقلاع الحضارى وراهن على تثقيف شعبه والرفع من مستواه مهما كان الثمن .

وانطلاقا من بيان هذه الممارسات الديمقراطية الفعلية عند الاستاذ محمد مزالي فمن المعلوم أنه يركز جهوده على نجاح مقوم من مقومات الديمقراطية وهو انجاح المسيرة التنموية لان المجتمع الجائع الفقير المحتاج لا يمكن له ان يطبق الديمقراطية ، فالجهل والجوع من اعدائها .

ولقد فتح الاستاذ محمد مزالي عدة واجهات تنموية قائمة على التعاون الحر النزيه مع الدول الصديقة والشقيقة وتشجيع الاستثمار القومي وتنمية الصناعات الوطنية ومع ذلك اعطاء الفلاحة الاولوية المطلقة لان شبعا لا يضمن اكتفاءه الذاتي من القوت لا يستطيع أن يكون بمنأى عن الضغوط الخارجية .

وظهرت للعيان النتائج الايجابية لهذه الثورة الخضراء من ارتفاع للانتاج القومي واقتراب من الاكتفاء الذاتي في ميدان الحبوب الى جانب تفجير المياه السطحية والعميقة وبناء السدود وتشجيع الفلاحين وترويج منتوجاتنا داخليا وخارجيا .

ان الديمقراطية الفعلية في بلادنا اكسبتنا احترام الاصدقاء والاشقاء ورفعت من مكانتنا بين الشعوب المؤمنة بحقوق الانسان .

والواجب يدعونا جميعا الى الحفاظ على هذا المكسب الغالي وهو الديمقراطية لان القائمين والساهرين على النظام ممن يتفانون في تطبيقها وتحقيقها .

والديمقراطية حين نضمن سلامتها ووجودها في بلادنا نكون قد ضمنا الثقافة والحضارة والتربية والرفاهية والحرية والمساواة والتكافل الاجتماعي واحترام الدستور وتحقيق مبدا احترام كل سلطة من السلط التي ينص عليها الدستور .

فالديمقراطية الفعلية هي القدر الحتمي لشعبنا ما دام الساهرون في الدرجة الاولى على تسيير حظوظه مؤمنين « بأن طريق المستقبل في تونس هو طريق الديمقراطية الواعية المسؤولة التي تمكن المواطنين والمواطنات من تدبير شؤونهم بالحوار واجتناب العنف اللفظي او الجسدي أو المادي » (13) ، وما دام هؤلاء المسؤولون ممن سرت الديمقراطية في عروقهم فاكسبتهم قوة التحدي والنضال لتحقيق ما يصبو اليه شعب يطوق الى تبوؤ أرقى مراتب السؤدد والفخر .

محمد الصادق دمق

---

(13) من خطاب القاه الاستاذ محمد مزالي الوزير الاول في مجلس النواب بباردو في 85/11/1 .

تونسِ الحبّ.. تونس الياسمين..

بلادي عروس تجلّت أصيـــلا ... وينبوع حبّ جرى سلسبيـــلا

أحُسنٌ سرى ما أرى ؟ أم مـــلاك ... تُرى ؟ أم نسيم تناغى عليـــلا ؟

أتونس ما أعجـز الـواصفين ... فسيلٌ من الوصف يبقى قليلا

أيـا بسمـة فـوق ثغر الحياة ... وغصنا طـريا أبـى أن يميـلا

ويا واحة أينعـت بالفـــلاة ... وألقت على القلب ظـلاّ ظليلا

أذوب عـلى راحتيك رحيقـا ... من الحبّ عـذبا نقيّـا جليلا

أحبك خضراء ، لكن هـواك ... بدا في الذّرى سامقا مستحيلا

تمنّعت عذراء عـن خاطبيـك ... فـزاد لهيب الفـؤاد فتيـلا

أهيم وبي من هـواك احتراق ... وقلب من الوجد أمسى عليـلا

فهل – يا عروسا بقلبي استحمّت – ... إلى دفء صدرك ألقى سبيلا ؟

خذيني إلى صدرك الرّحب ضمّا ... لأشفي اشتياقا وأروي غليـلا

أقرطاج والدّهر دانٍ لمجـد ... سما في سماك أبيّا أصيـلا

يخرّ الزّمـان بسفح « الشّعنبي » ... ويجثو الحسود حسيرا ذليـلا

وكم ناوأتنا الليالي ! فلاقت ... من الصبر طودا عنيدا ثقيلا
فهذا الجنوب ، جنوب الجمال ... تهادى سُمُوّا يضاهي النّخيلا
جنوب الجلال ، جنوب الرّجال ... بيوم النّزال أقام الدّليلا
وذي القيروان تراءت كبدر ... أفاءت على الكون نورا جميلا
وبنزرت كفّ الفدى ، خضّبتها ... دماءٌ تناءت تُزيحُ الدّخيلا
بلاد الفخار وما الفخر إلا ... كصرح بنيناه جيلا فجيلا
نناجيك جهرا ونحميك دهرا ... كذا الحرّ يحيا ويقضي أثيلا
فيلقي على العاشقين ورودا ... وليلا على الظالمين طويلا
ينوء الزمان بأبطال شعبي ... فيرتدّ عنّا الظّلوم فسيلا
فيا تونس الياسمين سلاما ... كهمس الصباح نديّا بليلا

علي محسن العرفاوي

عشقتُ المدى واصطفيتُ الرّحيلاَ ... وَأقسَمتُ أن أركبَ المُستحيلاَ
وأعلنتُ أنّي المُسافرُ دَوما ... وَأوْمَأتُ للدّمْعِ أن لا يَسيلا
وعند المفارق رقرق دمعي ... وقال : انتظرني .. انتظرني قليلا
أيا سندبادُ الحبيبة مَدّتْ ... يَدَيْهَا فهلاّ تَركْتَ الرّحيلا !؟

★ ★ ★

علَى حلمتيهَا يَحُطّ الحَمَامُ ... ويَنْعَمُ بالعَيْشِ جيلا فجيلا
وذي الشمس تسطع من وجنتيهَا ... تُعيدُ الشباب وَتَشفي العليلا

فيا ليت لو كنتَ نهرا لديها !   وَيَا ليتَ لو كنتَ لوْزا ! نخيلا !
ويا ليت لو كُنتَ زيتونة في   ثراها لكي لا تَضَلّ السَّبيلا !

★ ★ ★

وفتّحتُ عيني فأبْصَرْتُ حوْلي   عيونا جرى حُلْوها سلسبيلا
رَأيتُ الصّنوبرَ يَحْلُمُ يَعْلو   يُغني لدَى الأفق شعرا – هَديلا
فعانق أرْضَ الصّنوبرِ قلبي   وَكلّ المسافات ميلا فَميلا
وَعانقَ سُمْرَ السنابلِ فيها   وَهَامَ طويلا وَصَلّى طويلا
وَعانقتُ نفسي فإني ابْنُها   أنا طفلها ، لستُ أرضَى بَديلا

★ ★ ★

أنا عاشقٌ مُبحرٌ في هواكِ   هُوَ العِشقُ مَا كانَ سهدا جميلا
فيا تونس الحبّ والياسمين   دَعيني أَهيمُ لديْك قَليلا
دَعيني أبوحُ إليْكِ فإنّي   ظمِئتُ ، فهلا شفيتِ الغَليلا ؟!
إذا الشعراءُ تعاطَوْا خرابا   وَتَاهُوا .. وَمَالوا .. أنا لن أميلا
فإنّي لِيَ العشقُ حتّى التّلاشي   وَلِي حُبُّكِ الصّرْفُ صُبحا أصيلا
فَلمّي شتاتي .. وَشُدّي رباطي   وَكوني الحبيبة .. كوني الفتيلا

محمد البقلوطي

يظلّ الهوى عبقا بالأماني   فيروي الفؤاد ويشفي الغليلا
وحب بلادي دم في عروقي   مدى الدّهر يبقى أبيا نبيلا
فيسمو بنفسي وأرنو لأفقي   فألفيه يُبدي إليّ السَّبيلا
بلادي .. عروس البحار ووجه   مدى الدهر يبقى فتيا جميلا

بلادي هي الخصب عبر الصحاري — جرى الماء فيها ليسقي النخيلا
بلادي .. جنودك نحن جميعا — ولا خير في المرء يحيا ذليلا
ولا خير فينا اذا ما قبلنا — بسهم الأعادي لدينا نزيلا
تسيل دمانا فتسقي ثرانا — وفي العزّ أرضى دمي أن يسيلا
وإن قتلوني فمن أجل أرضي — إذا مت أسعد فيها قتيلا
ولما سألت الزمان حكى لي — بأن لتونس مجدا أثيلا
فقرطاج شادت قصورا .. وباهت — شعوبا .. وصدت بيأس دخيلا
وفي القيروان عراقة شعب — سيبقى برغم الخطوب أصيلا
وتونس أمٌّ لنا ليس تنسى — بنيها وتحضن جيلا فجيلا
وشعبك لا يرتضي العجز دارا — وفي الحُبّ يُبدي إليك الدّليلا
ينام ويصحو بآمال قلب — ويبقى إليك الصديق خليلا
نحبّك تونس بحرا وبرّا .. — وشمسا تطلّ .. وظلاّ ظليلا

رجب بن مهني

قصائد متوامة

«تونس الحب .. تونس الياسمين» هذا عنوان واحدة لقصائد متوأمة مازال الشعراء يراسلوننا بها وسنوالى نشر ما يرد علينا منها مسكونا بهاجس الاضافة .. موسوما بمعاناة الاصالة والابداع ..

في الذكرى الخمسين لوفاة الطاهر الحداد

موقفه من قضايا جلية

بقلم : احمد خالد

قد يتبادر الى ذهن بعضهم أن الطاهر الحداد بدأ من حيث فشل محمد على اذ غلب النزعة الدينية التعليمية على الجدلية العلمية ،، سؤال يبدو طريفا في حد ذاته (I) . وهو في الحقيقة منطلق للحديث اجمالا عن هذا العلم التونسي وعن العلم التونسي الآخر محمد علي الحامي ، وعن الجو الثقافي الذي كان سائدا في تونس في الثلاثينات والنضال الاجتماعي والنضال السياسي .

اننا في الواقع لا نستطيع ان نتحدث عن الطاهر الحداد معزولا عن جوه الثقافي العام ، اذ تعود بعضهم ان يذكر الحداد من زاوية اهتمامه بموضوع له علاقة بالاحداث الاجتماعية أي الموضوع الذي له مساس بالجانب الاجتماعي من الدين . وهذا في الواقع جانب من عدة جوانب تميزت بها هذه الشخصية الفذة في تاريخ الفكر والثقافة ببلادنا .

ينتمي الطاهر الحداد الى ثلة من شباب تونس الذي أسهم اسهامات جادة في ميداني الفكر والثقافة ، ولم يكن منفردا بالكتابة في الثلاثينات اذ أنه كان يعاصر شخصيات أدبية وفكرية ممتازة نذكر من بينها أبا القاسم الشابي وسعيدا أبا بكر الشاعرين وغيرهما من ادباء تونس ومثقفيها في تلك الحقبة من تاريخنا .

(I) هذه المقالة جزء من سمر اشرفت عليه بمدينة السواسي مساء 23 جويلية 1985 .

ان ما يتميز به الطاهر الحداد هو أنه جعل الادب رسالة الدنيا ، ومسؤولية الحياة ، ولم ينظر اليه من منظار تجزية الفراغ كما هي العادة عند كتاب وشعراء كثيرين في زمانه وقبله .

ينطلق الطاهر الحداد من عشقه لتونس ، ومحبته لتربتها ومن تعلقه الشديد بمجتمعه التونسي وغيرته عليه في زمن كانت تونس في قبضة سلطة أجنبية الامر الذى جعل الطاهر الحداد وثلة من الشباب اليقظ من أدباء تونس يتألمون تألما كبيرا ويشعرون بالغربة ، غربة من كان غريبا في وطنه ، غربة من لم ينأ عن أرضه وانما كان غريبا في غربته كما يقول أبو حيان التوحيدى في الاشارات الالاهية متوقعا منذ عشرة قرون هذا التصور لمفهوم الغربة الوجودية .

هذا المعنى يتردد كثيرا في أدب الطاهر الحداد كما يتردد كثيرا في أدب الشابي وأدب سعيد أبي بكر وغيرهم وعناوين قصائد كثيرة لابي القاسم الشابي تدل على هذا المعنى العميق ، معنى الغربة ، وشكوى الغربة من قبل التونسي الذى لا يتحكم في مصير بلاده وهو يعيش على أديمها في سجن كبير فنجد : الاشواق التائهة ، والى قلبي التائه ، ونجد قصيدا موشحا بعنوان نشيد الاعمى لسعيد أبي بكر حيث يقول :

قلبوا الطرف اطلاعا انظروا نقطة المرمى

ومن جملة ما يقول فيه :

وانظروا الغربي فيها واذكروا انني الاعمى

ويقصد بالاعمى ذلك الذى يتعامى عن مشاهدة المآسي التى كانت تتراءى في البيئة التونسية ، ويتألم منها الشاعر ويذكر فيها الغريب . كما نجد قصائد من هذا النوع عند الطاهر الحداد منها قصيده المهدى الى تونس .

أتونس عندى في هواك تولع وانت منى نفسي عليك تقطع

والقصيد من أروع ما نظم وان كان مكتوبا بلغة بسيطة ليست اللغة التى تميز بها الشابي مثلا وهي اللغة التي يقوى فيها الخيال المجنح لان الشابي كان يلجأ الى طريقة الايحاء الشعرى في حين ان الطاهر الحداد كان أقرب الى البوح الصريح بالمعنى .

انطلقت من هذا عن قصد لان منطلقهم هو تعلقهم الشديد بتونس ، وغيرتهم على هذه الارض السليبة وعلى هذا المجتمع الذى كان مهددا بالذوبان ، بالتجنيس ، بالتفليس ، بالفرنسة بسياسة القمع وهو ما انطقهم وجعلهم يسخرون القلم للذود عن تونس والتغنى بالغد المنشود .

يقول الطاهر الحداد أبياتا من أروع ما يمكن أن يقال :

شربت حب بلادى مذ نشات بها   طفلا فعم باحشائى وأوصالى
عرفت منتهـا الكبرى علـيّ ولم   انس الفروض التى تقضى بامثالى
من كل حر اصاب الكرب موطنه   فقام يسعى باقوال واعمال

هذا هو الطاهر الحداد فى الواقع ، المثقف الحر الذى شرب حب بلاده وسخر قلمه للدفاع عنها وللتغنى بحبه لها . وهذا هو منطلقه .

ان الطاهر الحداد شخصية متعددة الاختصاصات والاهتمامات :

– فهو الشاعر الذى جاء جل شعره فى وصف الحالة التى كانت سائدة بتونس فى زمانه فهو شعر ايقاظ واحياء وشعر يخدم النهضة التونسية .

– والطاهر الحداد هو الصحفى الذى كان يكتب المقالات المطولة فى مواضيع تعالج قضايا حساسة ذات اهمية كبرى ، فقد كان يكتب الافتتاحيات فى مجادلة أكبر وأبرز الاقلام حتى الاقلام الفرنسية . وهو أمر قد يبدو غريبا لان الطاهر الحداد لم يكن يعرف اللغة الفرنسية ومع ذلك جادل مثلا قطبا من أقطاب الحركة السياسية الاشتراكية الفرنسية بتونس . وقطبا من أقطاب الحركة النقابية الفرنسة (الس. ج. ت) وهو جواشيم ذوريل . وقد اكتسب الحداد الازدواجية اللغوية بطريقة غير مباشرة أى عن طريق الاتصال والاحتكاك كوسيلة من وسائل التعرف على ثقافات أخرى .

– ثم هو السياسى الذى بدأ نشاطه كعضو مكلف بما يسمى الدعاية السياسية للحزب الدستورى القديم قبل انشطاره .

– وهو أيضا الذى رافق وعاشر سنتى 1924 و 1925 محمد على الحامى هذا الرجل العصامى الذى كون نفسه وبدأ حياته كحمال بالسوق المركزية

بالعاصمة قبل ان يستنجبه قنصل النمسا بتونس آنذاك فيتخذه سائقا له ، ثم هاجر اثر ذلك والتحق بصفوف المجاهدين الليبيين الذين كانوا يواجهون الجيش الايطالي في حرب تحريرية ، واشتغل مع أنور باشا القائد التركي ، والتحق في أواخر الحرب العالمية بألمانيا حيث زاول الدراسة الجامعية الحرة بجامعة برلين وعاد نهائيا الى تونس في سنة 1924 مزودا بتجارب فأراد ان يطبق بعض الافكار التي كانت تخامره وهو في بلاد الغربة كما يذكر ذلك الطاهر الحداد في كتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » ، وهو كتاب صدر سنة 1927 وحجز في المطبعة . وقد بلغنا الكتاب وأعيد طبعه في تونس المستقلة باشارة من فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة الذي ذكر الطاهر الحداد ومحمد على الحامي في عدة مناسبات واعتبرهما من شباب تونس الذي نعتز به في مسار الحركة النضالية التحريرية من اجل تونس .

بدأ الطاهر الحداد تجربته الاجتماعية مع حزب الدستور القديم ثم ابتعد عنه لاختلاف في وجهات النظر بينه وبين قادته الذين يبدو أنهم لم يغفروا له ذلك ويظهر ما أسروه في الحملة المسعورة التي شنوها عليه بعد صدور كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » .

وكانت للحداد تجربة ثانية هي تجربته الاجتماعية الاقتصادية الثقافية السياسية مع محمد على الحامي وحركته التي هي حركة نقابية وطنية . وكل المساهمين فيها كانوا من اتجاهات متباينة لكن الغالب عليهم الاصل الوطني التونسي رغم ما قيل فيها من جانب من ارادوا ان يسلطوا عليها أضواء ماركسية واعتبروها متأثرة بالشيوعية في ذلك الوقت .

وقد بدأت هذه الحركة بمحاولة محمد على تطبيق برنامج اقتصادي تعاوني عن طريق بعث جمعيات تعاونية في المجال المالي والاقتصادي غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل ومن جملة ما يعلل به الطاهر الحداد فشلها في كتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » أن المجتمع التونسي لم يكن متهيئا لها .

وان فشل هذه المحاولة الاشتراكية والظروف التي حصل فيها ذلك الفشل ساهمت في تحويل حركة محمد علي من حركة تعاونية اقتصادية الى حركة نقابية ذات بعد سياسي وطني وهو ما اثار مخاوف المقيم العام

« منصرون » وغلاة المعمرين وحزبهم الذى كانت له جريدة يدل اسمها على هدفهم الرئيسي وهو ادماج تونس فى صلب فرنسا وجعلها مقاطعة تابعة لها وهذه الجريدة هي « لاتونيزي فرانساز » « تونس الفرنسية ».

ولما تضخم دور محمد علي وجماعته وخلخلوا الكيان الاستعماري بالاعتصابات (الاضرابات) والمصادمات الدموية وبالخصوص الاحداث الدامية بمدينة بنزرت فى سنة 1924 التى كتب فيها الكتاب المقالات وقال فيها الشعراء القصائد كقصيد سعيد أبى بكر في رثاء شهداء بنزرت ، دبر المقيم العام مكيدة تألبت بمقتضاها الاحزاب السياسية في ذلك الوقت على محمد على منهم الوطنيون والدستوريون القدامى . وقضى على الحركة وحكم على قائدها محمد على الحامي بالنفي خارج تونس .

وأمام ما حدث للحركة وتغريب قائدها وثلة من رفاقه انطوى الطاهر الحداد على نفسه يفكر فى اسباب فشل الحركة ويذكر هذا فى مقدمة الباب الاول من الكتاب فى تحليل اجتماعى سياسى — قبل ان يبدأ في تاريخ الحركة — عزا فيها فشل الحركة الى فقدان الوعى الاجتماعي آنذاك في المجتمع التونسي الذى اعتبره مجتمعا مشلولا نصفه لا يقوم بدوره الاجتماعى التربوى كما يجب ويعنى بذلك المرأة التونسية فى زمانه وكأنه بهذا يبشر بالكتاب الآخر الذى أصدره سنة 1930 وهو كتاب : « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » ويقول فى مقدمة كتاب : « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، كم يتطلب هذا الموضوع (يعنى موضوع ترقية المرأة) من كتاب !؟

هذا ما يمكن أن يتبينه كل من يقرأ قراءة متمعنة المقدمة الطويلة لكتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » .

من هنا جاء اهتمام الطاهر الحداد بموضوع اصلاح وضع الاسرة التونسية فقارب الموضوع من جانب اجتماعي ديني بدون شك .

ونحن عندما نذكر الحداد لا نفكر عادة الا فى مشروعه الاصلاحى الديني من جانب الاحوال الشخصية وننسى قسما آخر يكتسى أهمية بالغة من الناحية الادبية والاجتماعية وهو القسم الثانى من كتاب « امرأتنا فى الشريعة

والمجتمع ، وهو بمثابة اللوحات الادبية بقلم كاتب فنان أدخلنا عن طريقها البيوت التونسية فى ذلك الوقت وأطلعنا على بعض المشاهد الحية من حياة الاسر فأرانا مشاهد مأسوية فى وصف الصراع بين الاخوة من أمهات مختلفات وبين الزوجات ومكائد بعضهن للبعض وما ينجر عن ذلك من خصام وشجار قد يصل الى حد شد الخناقات والعنف . وهذه المشاهد وان دخلت اليوم طى النسيان وأصبحت من التاريخ فانه من المفيد ان يطلع عليها الشباب التونسى الذى لم يعش تلك الظروف ولم يعش مثل تلك الحالات المأسوية نتيجة الاصلاح الجذرى الذى أقرته مجلة الاحوال الشخصية بحظر تعدد الزوجات خاصة .

وفى القسم الاول يدخل الطاهر الحداد صلب الموضوع الذى ألف من أجله كتابه والواقع ـ وأقول هذا للتاريخ ـ ان فصولا وأبوابا طويلة منه لم يؤلفها الكاتب فى سنة 1930 سنة صدور الكتاب بل ألفها من قبل اذ نجده يؤرخ المقدمة بسنة 1929 بينما نشرت له عدة فصول من الكتاب فى جريدة « الصواب » سنة 1928 ومنها مقالات أيضا للصحفى الاديب المرحوم الهادى العبيدى الذى كانت تربطه بالحداد رفقة وعشرة وتقدير متبادل . والغريب أن كل تلك الفصول لم تثر عندما نشرت بجريدة « الصواب » أية ضجة ولم تلق أية مناهضة تذكر رغم ان تلك الجريدة كانت جريدة سيارة يقرؤها جل التونسيين ـ لانها كانت جريدة وطنية هادفة ذات مستوى طيب ، فيها تنوع من حيث الكتابة السياسية والاجتماعية والادبية ـ فى حين أثار الكتاب لما صدر سنة 1930 ضجة كبرى وجابه مؤلفه معارضة عنيفة وقاومه المحافظون وخاصة بعض مشائخ النظارة العلمية ، وخصصت له بعض الصحف افتتاحياتها ومقالاتها الطويلة لدحض اراء مؤلفه وثلبه والتهجم عليه بدون تحفظ ومنها مقالات لبعض الشخصيات المحترمة التى كان لها مساهمات فى النهضة وفى الحركة الاصلاحية بتونس واذكر مثالا على ذلك مقالة جد طويلة ملأت صفحة كاملة من جريدة « الارادة » كتبها الشيخ راجح ابراهيم فى حديث البسملة معترفا مع ذلك بانه كتب تلك المقالة ولم يقرأ الكتاب . كما أن من بين من ناصر الحداد من يعترف بانه ناصره ولم يقرأ الكتاب ثقة فيه وتعاطفا معه وأذكر منهم الشيخ سالم بن حميدة . وقد كتبت مرة بحثا بعنوان « بين الشيخين راجح ابراهيم وسالم بن حميدة فى جدلية بين القديم والجديد » لان الموقفين طريفان ولان الرجلين كانا يسلكان فى قضية ترقية المرأة التونسية مسلكين متباينين .

كانت سنة 1930 خطيرة فى تاريخ تونس وتاريخ المغرب العربى اذ كانت السنة التى ظهر فيها الظهير البربرى ، والسنة التى حاول فيهـا الاستعمار تمزيق اللحمة التى تربط بين الاخوة المغاربة بمحاولة التفريق بين البربرى والعربى ، وهى السنة التى احتفل فيها باحتلال الجزائر وبمرور مائة عام على نـزول القـوات الفـرنسية بشاطىء سيدى فرج بذلك القطر الشقيق ثم هى السنة التى بدأ فيها بعض المستعمرين يهيئون للاحتفال بمرور 50 سنة على انتصاب الحماية ببلادنا . وهى بالخصوص السنة التـى انعقد فيهـا مؤتمـر عالمى كنائسى بتونس كان يستهدف تنصير البلاد هو المؤتمر الافخارستى العالمى الذى نظمته الكنائس فى محاولـة لتنصير المسلميـن وشارك فيـه الرهبان والباحثون النصارى من كل بلدان الدنيا فتوافدوا علـى تونس فـى حملـة شبه صليبيـة ان لم نقـل صليبية بأتم معنى الكلمة ، وفـى امكـان كل من يراجع التاريخ ـ تاريخ الاحداث وما جرى آنذاك ـ من خلال الصحف التونسية وهى موجودة متداولة ، ومن خلال الوثائق الكنائسية نفسها كمجلة « لاتونيزي كاتوليك » التى تصدرها الكنيسة النصرانيـة بتونس فـى ذلك العهد ان يتبين أن المشاركين فى ذلك المؤتمـر استرجعوا ذكريات الحملات الصليبية وآخر حملة صليبية فى تونس أى الحملة الصليبية التاسعة التـى قادها ملك فرنسا القديس سان لوى الذى أصيب أثناءها بالوباء ومـات فـى قرطاج حيث يظن الآن أن قبره موجود ومن جملة تظاهرات ذلك المؤتمر الذى انعقد فى ماى 1930 الاستعراض الصليبـى لما لا يقل عن عشرة آلاف شـاب وشابة انطلقوا من ملعب « جيـو أنـدري » ملعب الشاذلى زويتن حاليا ترجلا بأزياء الصليبيين وعلى ظهورهم الصليب ومروا تحـت أقواس النصـر التـى رفعت عليها الصلبـان وكتبـت عليها عبارة « بهذا ستنتصـر » ، « بـالصليب ستنتصر » ، وواصلـوا السير حتى وصلوا الى ما كان يظن أنه قبر سـان لوى وقدموا القربان ورموا بالجريد ، ونصبوا الاسرة فـى جامع الصادقية . كـل ذلك كان تحديا للذاتية التونسية وللعقيدة الاسلامية التى هـى أحد مقومات الشخصية التونسية . وبدون شك كان رد فعل الصحافة التونسيـة عنيفا . وكثيرا ما كان فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة يذكـر بتلك الاحداث ويبـرز مدى الاخطار الجسام التى كانت تهدد تونس فى ذلك الوقت وأذكر أنه حضر

لى محاضرة في يوم من الايام وجرى بيننا حوار طريف جدا وتحدث أثناء النقاش أيضا عن تعليل الخصومة ، والخصومة حول الكتاب أسبابها عميقة وهي في الواقع ترجع الى ظروف ابتعاد الطاهر الحداد عن جماعة اللجنة التنفيذية لانه ما كان في وقت من الاوقات يشعر بتناغم وانسجام بين تصوره للنضال وتصورهم له فابتعد عنهم هو وثلة من رفاقه منهم احمد الدرعي الذى ذكر ذلك فى كتابه فاسر جماعة اللجنة التنفيذية ذلك واغتنموا صدور كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » سنة 1930 لينهالوا عليه انتقادا وتجريحا وتكفيرا .

وقد وجد بعضهم فى هذا فرصة ليغسلوا ذنبا وينسوا الناس فى ورطة موقفهم المتخاذل من المؤتمر الافخارستى لان هذا المؤتمر كانت له لجنة شرفية من بين اعضائها بعض ثراة القوم آنذاك منهم أحمد باى الذى زار كنيسة « فرفيار » بفرنسا حسب الوثائق الكنيسية نفسها فى شهر جويلية 1930 اى بعد شهر من انعقاد ذلك المؤتمر . ولكنه اضطر أمام مختلف ردود الفعل التى ظهرت فى ذلك الوقت الى محاولة تبرير موقفه وتبرئة نفسه بدعوى التسامح الذى هو من اهم المبادىء التى يدعو اليها الاسلام ويحث عليها . والحقيقة أن المسالة ليست مسالة تسامح لان العقيدة والكيان كانا مهددين ، وأن الواجب كان يقتضى الوقوف امام كل التحديات والتمسك بكل مقومات الشخصية التونسية والتشبث بها والدفاع عنها وهو ما كان موقف الزعيم الحبيب بورقيبة سنة 1929 فى الجدال الذى جرى اثر المحاضرة التى القتها امرأة تونسية سافرة بعد ان أزاحت الحجاب وتحدثت فيها عن وضع المرأة التونسية فى ذلك العهد ونددت بما كانت تعانيه من كبت وببعض العادات السائدة اذ جادلها الزعيم هو وجماعة منهم الطالب محجوب وهذا الجدال نجد صداه فى مقالة من أروع ما كتبه الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة بعنوان « الحجاب le voile » ، وكان موقفه مؤيدا للحجاب معللا ذلك تعليلا سياسيا : بأن الحجاب درع لوقاية الذاتية التونسية كالشاشية وغيرها فينبغى التشبث به وعندما تنقذ الذاتية وتشعر المرأة التونسية بالحاجة الى التحرر فعندئذ يحين وقت ازالة الحجاب وهى نظرة مستقبلية

جد حصيفة يقوم شاهدا عليها ما أحرزته المرأة فى تونس من ترقية اجتماعية وما تعيشه فعلا اليوم .

هذا بسرعة استعراض تاريخي لاهم أحداث تلك الفترة من تاريخ تونس والواقع أن الطاهر الحداد لم يغلب النزعة الدينية التعليمية على الجدلية العلمية وكل ما فى الامر ان موضوع الدين جاء - بدون شك - عرضا لان ما اهتم به الحداد لا يمس جوهر العقيدة فهو يشيد مشروعه الاصلاحى على نظرية يجهر بها من البداية وهو ما يبينه بكل وضوح فيقول : إن المواضيع التى اعالجها واهتم بها هى مواضيع لها مساس بحياة الاسرة وبالشؤون الدينية وبالأحوال الشخصية ولا تمس بجوهر العقيدة ، عقيدة التوحيد ولا بمبادئها الاساسية ، وهو اذ يشيد مشروعه من هذا المنطلق يجهر بآراء سابقة لاوانها وهو يعرف ذلك ويقوله ويكتبه وهو ليس غرا اذ يقول : إن الافكار التى يجهر بها ان بدت مزعجة الآن فسيكتب لها البقاء وتدخل حيز التطبيق فى مستقبل الايام كانه يتوقع ما تم تحقيقه فى ميدان الاحوال الشخصية من اصلاحات ثورية فى فجر استقلال البلاد .

احمد خالد

أُحِبُّكِ .. لا سيما هكذا !

شعر : يوسف رزوقه

لِمَاذَا أُقَطِّعُ أَوْرِدَتِي فِي حَرِيقِ مِنَ الإِشْتِهَاءْ ؟
لَقَدْ مُتُّ صَعْلَكَةً وَرَحِيـــلا
وَلَمْ أَرَ عَبْرَ المَرَايَا سِوَايَ ، فَأَيْـــنَ اخْتَبَأْتِ ؟
سَأَكْتُبُ آخِرَ أُغْنِيَةٍ لِي
وَأَهْرُبُ مِنْ أَرْخَبِيلِ العَذَابِ المُلَغَّـــمِ ، مِنْكِ ..
فَلَمْ يَبْقَ لِي مَا يُبَرِّرُنِي كَفَتَى عَاشِقٍ لِشِتَاءٍ يَطُولُ .
لِمَاذَا أَمُوتُ مِرَارا
وَلَا غُنْمَ لِي غَيْرُ لُغْمٍ
تُفَجِّرُهُ فِي تَمَـــامِ الهُدُوءِ حَمَاقَةُ طِفْلٍ ؟
لَقَدْ هَالَنِي مَا فَعَلْتُ
وَأَمْطَرَنِي الأَصْدِقَاءُ بِوَعْظِ الأَئِمَّةِ وَالفُقَهَاءِ
فَلَمْ أَتَّعِظْ وَانْدَفَعْتُ
وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الَّتِي وَلَدَتْنِي ..
تُلَقِّمُنِي الآنَ مَصَاصَـــةَ الإِنْتِهَاءْ

* * *

افتَحِي النَّافِذَةْ
كُلُّ شَيْءٍ هُنَا كَاسِرٌ :
نَظَرَاتُك نَحْوِي / شَذَاك / شَذَا الغُرْفَةِ المُطْمَئِنَّةِ /
مَجْمُوعَةُ الصُّوَرِ الحَائِطِيَّةِ وَالصَّمْتُ : صَمْتُ المُسَافِرِ إِذْ يَخْتَفِي
فِي مَجَاهِلِ نَايٍ قَصِيٍّ .
افتَحِي النَّافِذَةْ ..
فَأَنَا لَمْ أَذُقْ مُنْذُ عِشْرِينَ حَوْلاً حَنَانًا كَهَذَا ..
شَنَقْتُ الفَرَاشَةَ / لَمْ أَبْكِ . لَمْ تَبْكِ فِي دَاخِلِي زَهْرَةٌ
إِنَّنِي هَكَذَا مُنْذُ أَنْ عَاشَرَتْنِي الزَّوَابِعُ : طِفْلٌ عَصِيٌّ ..
جَعَلْتُ « الأَنَا » زَمْهَرِيرا
وَحَلَقْتُ فَوْرا
فَلَمْ أَرَ أَجْنِحَةَ للْجَمَاعَةِ فِي ..
تَعَالَي إِلَى جَانِبِي
لاَ تَظَلِّي مُشَتَّتَةً هَكَذَا : بَيْنَ جُرْحٍ جَدِيدٍ وَجُرْحٍ خَفِي
وَلاَ تَرْهَبِي طَارِقًا قَدْ يَشُجُّ المَرَايَا بِضَرْبَةِ سَيْفْ
تَعَالَيْ إِلَى جَانِبِي ..
لَمْ يَعُدْ للْحَقِيقَةِ قَيْدٌ
وَلَمْ يَبْقَ لِي فِي فَيَافِي اللَّظَى
غَيْرُ ظِلٍّ يُهَدِّدُهُ الإِمِّحَاءُ وَنَسْمَةُ صَيْفْ ..
تَعَالَيْ إِلَى جَانِبِي ..
فَأَنَا مُتْعَبٌ بِهَوَاك
وَأَعْرِفُ أَنَّ المَدِينَةَ مَنْفًى وَرَقْمٌ وَزَيْفْ
وَأَعْرِفُ أَنَّ الَّذِي بَيْنَ كُلِّ الَّذِينَ وَكُلِّ الَّذِينَ : عَلاَقَةُ طَيْفٍ
بِطَيْفْ

وَأَعْرِفُ أَنَّكِ طَاغِيَةٌ بِالحَنَانِ وَأَقْوَى - إِذَا احْتَدَمَ الحَيْفُ -
مِنْ كُلِّ حَيْفْ
تَعَالَيْ إِلَيَّ جَانِبِي ..
لأُطَالِعَ وَجْهَكِ فِي قَهْوَتِي مَرَّةً ، مَرَّتَيْنِ .. فَهَلْ أَكْتَفِي ؟
لا تَقُولِي : ارْتَخَى شَجَرُ الشَّوْقِ أَوْ شَاخَ نَبْعُ الأَغَانِي
فَلَمْ تَخْبُ شَمْسُ الطُّفُولَــــــة بَعْدُ ..
وَلَمْ تَكْتَشِفْ نَحْلَةُ القَلْبِ مَا لِلرُّبَى مِنْ زُهُورٍ وَمَا لِلْبَرَارِي .
تَعَالَيْ إِلَيَّ جَانِبِي ..
مُنْذُ عِشْرِينَ قَمْحًا وَنَيْفْ ..
تَفَحَّمْتُ قَلْعَتَكِ الأَثَرِيَّةَ مُبْتَهِجًا بِاشْتِعَالِي
وَلَمْ أَدْرِ : هَلْ أَنَّنِي سَيِّدُ القَلْبِ أَمْ أَنَّنِي فِي النِّهَايَةِ ضَيْفْ ؟

* * *

أُحِبُّكِ لا سِيَّمَا هَكَذَا :
أَنْ أُخَمِّنَ حَتَّى تَغِيمَ الرُّؤَى :
مَنْ تَكُونِينَ ؟ مَا اسْمُكِ ؟ هَلْ نَلْتَقِي فَجْأَةً فِي أَقَاصِي الفَيَافِي
فَيَنْهَضَ نَبْعٌ وَتَبْدُو ظِلالٌ وَنُعْلِنُ أَنَّكِ .. أَنِّي : شَقِيقَانِ فِي
العَطَشِ المُتَبَقِّي وَفِي الإِتِّجَاهْ ؟ .
لِمَاذَا انْتَحَرْنَا كَثِيرًا
وَلَمْ نَكْتَشِفْ هَيْئَةَ المَوْتِ إِلاَّ أَخِيرًا ؟

* * *

أُحِبُّكِ لا سِيَّمَا هَكَذَا :
أَنْ نُشَجِّرَ بِيدًا مِنَ الإِشْتِهَاءْ
وَأَنْ نَتَشَابَكَ زَحْفًا إِلَى نُقْطَــــــةِ الإِتِّكَاءْ

لَنَا أَنْ نُقَرِّرَ آنَئِذٍ :
أَيَّ مَوْتٍ يَلِيقُ بِطِفْلَيْنِ عَاشَا قُرُونَا
وَكَمْ يَبْقَ مَعْنًى يُبَرِّرُ مُكْثَهُمَا .. كَيْ يَكُونَا ؟

* * *

تَعَالَيْ إِلَى غُرْبَتِي ..
ثُمَّ لاَ تَنْـدِي الإِرْتِعَاشَةَ وَاتَّئِدِي ..
عَبَثًا نَتَفَادَى ..
فَكُلُّ الثِّمَارِ العَنِيدَةِ وَاقِعَةٌ لاَ مَحَالَةَ فِي قَبْضَةِ الجَاذِبِيَّةِ :
صَالِحَةً لِلْفَسَادْ .
تَقُولِينَ : طُوبَى لِنَبْعِ الطُّفُولَةِ فِيكْ !
كَأَنَّكَ أَرْضٌ يَبَاسٌ أَوِ امْرَأَةٌ نَاهَزَتْ بِالتَّفَجُّعِ مِائَةَ عَامْ
كَأَنَّكَ مَا كُنْتَ فِي أَرْخَبِيلِ الهَوَى « خَيْزَرَانَ » الَّتِي تَحْكُمُ الأَرَضِينَ
وَيَحْتَكِمُ الفُقَرَاءُ إِلَى قَلْبِهَا فَيَسُودُ السَّلاَمْ
تَقُولِينَ : طُوبَى لِنُسْغِ المَسَافَـــــةِ فِيكْ !
كَأَنَّكَ تَاءٌ مَوَاتٌ
كَأَنَّكَ أُنْثَى مِنَ الزَّنْكِ أَوْ جُثَّةٌ مِنْ رَمَادْ
كَأَنَّكَ مَا كُنْتَ إِلاَّ لِيَنْأَى بِكِ اللَّيْلُ نَحْوَ الجَمَاجِمِ وَالأَوْجُهِ الصُّفْرِ وَاللاَّ بِلاَدْ
تَلاَحَقَ طَعْمُ الهَزِيمَةِ وَارْتَطَمَ القَلْبُ بِالرُّمْحِ حَتَّى خَلاَ مِنْ مَعَانِي العَذَابْ ..
افْتَحِي النَّافِذَهْ ..
وَاطْرُدِي مِنْ فَضَاءِ الكَلاَمِ نَعِيقَ الغُرَابْ .

* * *

اطْمَئِنِّي ..
سَيَبْقَى الفَتَى تُونسيٍّ الوِدَادْ
سَتَبْقَى الخَلَايَا مُؤَثَّثَة بِحَفِيفِ الخُطَى
لَسْتُ نَذْلا .. لَا نَسَى شَذَا أَجْمَلَ امْرَأَةٍ فِي حَيَاتِي
فَأَنْتِ المَسَافَــــــةُ فِي كَلِمَاتِي
وَجَمْرُ الرُّؤَى أَنْتِ فِي كُلِّ هَذَا الرَّمَادْ
اطْمَئِنِّي ..
سَنَذْهَبُ فِي زَمْهَرِيرِ العَلَاقَةِ مُشْتَعِلِين
نُمَشِّطُ مِنْطَقَةَ الرُّعْبِ حَتَّى نُطَهِّرَ أَمْعَاءَهَا المُدْلَهِمَّةَ من كلِّ لُغم
وَنَرْقُصُ عِنْهَا كَزَوْجَيْنِ مِنْ لَهَبِ ..
وَلْنَمُتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي نَفَقٍ مُظْلِمٍ
أَوْ عَلَى رُكْبَةِ امْرَأَةٍ عَاقِرٍ
فَتَعَالَيْ إِلَى غُرْبَتِي ..
وَدَعِي الطِّفْلَ يَغْفُو قَلِيلا عَلَى رُكْبَتَيْكِ ..

★ ★ ★

وَضَعْتُ الأُسُسْ
وَشَيَّدْتُ نَفْسِي طَوِيلا وَأَثَّثْتُهَا بِالرُّؤَى
ثُمَّ فِي غَفْلَــــــةٍ مِنْ عُيُونِ العَسَسْ
كَانَ لَا بُدَّ أَنْ أَتَمَشَّى قَلِيلا عَلَى حَافَةِ الجُرْحِ مُتَّئِدا
لَمْ أَكُنْ شَاعِرا بِسُقُوطِ الحِجَارَةِ مِنِّي
وَإِذْ هَالَنِي البَرْدُ فِي آخِرِ البَوْحِ ، سَرَحْتُ عَيْنا وَرَائِي
وَفَتَّشْتُ عَنْ أَثَرٍ لِلْعِمَـــــارَةِ ، عَنِّي

فَلَمْ أَرَ إِلاَّ حِذائِي
وَخارِطَةً مِنْ حُرُوفٍ وَقَدْ لَطَّخَتْهَا دِمائِي .

★ ★ ★

ظِلالٌ ..
تَضاءَلَ زادُ المُسافِرِ وَانْسَكَبَتْ فِي نُخاعِ المَسافَةِ حُمَّى الخُطَى
– ما الَّذي مالَ بِي نَحْوَها ؟
ما الَّذي حَمَّلَ الجَبَلَ المُطْمَئِنَّ عَلَى أَنْ يُبَرِّرَ سَجْدَتَهُ وَيَسِيحْ ؟
يَظَلُّ اللَّظَى فِي تَمامِ الظَّهِيرَةِ أَشْهَى المَظَلاَّتِ :
– لا بَيْتَ لِي في فَيافِي القَصِيدَةِ ، قالَ المُسافِرُ .. ثُمَّ اشْتَهَى ما اشْتَهَى وَاكْتَوَى بِالهَوَى فَانْتَهَى فِي هُلامِيَّةِ الدَّرْبِ : طِفْلاً بِلا أُسْرَةٍ ، حافِيَ القَلْبِ وَالقَدَمَيْنْ
ظِلالٌ ..

وَأَبْدُو كَمُنْفَلِتٍ مِنْ دَساكِرِ تُونِسَ مُتَّجِها نَحْوَ أَعْلَى العَواصِمِ حُلْما
وَأَعْنَفَها زَمْهَرِيرا
– إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ قالَ الجَمَلْ .
وَاللَّظَى كاسِرٌ وَالمَسافَــــةُ لا تُحْتَمَلْ ؟
قُلْتُ : لَمْ يَبْقَ إِلاَّ التَّوَغُّلُ فِي التِّيهِ حَتَّى يَمَلَّ المَدَى أَوْ نَمَلّ ..

★ ★ ★

لِماذا أَنْتِ بِالذّاتْ ؟
لأَنَّكِ أَجْمَلُ امْرَأَةٍ أَلُوذُ بِها مِنْ الآتِي
لأَنَّكِ أَوْ لأَنِّي .. رُبَّما كُنَّا المَسافَةَ داخِلَ المَنْفَى
فَتَخْتَلِطَ الخُطَى نَحْوَ البِداياتِ الَّتِي لا بُدَّ .. أَوْ نَحْوَ النِّهاياتِ

لأنَّك آهٍ لأنّي .. رُبَّمَا ضَاقَتْ بِنَا دُنْيَا الكلام المُقْفَلِ فَاشْتَقْنَا
إلى أَعْلَى فَأَنْشَأْنَا مَنَازِلَ لِلفَلاسِفَةِ الَّذِينَ .. وَقَرْبَةَ لِلابقِينَ
مِنَ الجَحِيمِ وَقَدْ نُشَيِّدُ فِي الهَوَاءِ الطَّلْقِ قَصْرًا لِلمَسَرَّاتِ
لِمَاذَا أَنْتَ بِالذَّاتِ ؟
لأَنَّك خَيْرُ خَوْفٍ تَخْتَفِي فِي كُوخِهِ ذَاتِي
لأَنّي مُولَعٌ بِغَرَابَةِ الفَلَوَاتِ ، مَحْمُومٌ مِنَ الدَّاخِلْ
لأَنَّكِ مَوْجَةُ المَجْهُولِ إِذْ سَاحَتْ عَلَى السَّاحِلْ .

★ ★ ★

وَإِذْ غَابَ وَجْهُكِ عَنِّي ، تَنَاقَضَ مَائِي
وَإِذْ لَمْ أَجِدْ مَنْ يُعِيدُ امْتِلائِي ..
سَأَلْتُ الرُّبَى
فَتَعَلَّقَ ذِئْبُ اللَّظَى بِرِدَائِي
وَمَزَّقَنِي
ثُمَّ جَمَّعَنِي
ثُمَّ طَيَّرَنِي
فَتَجَاوَزْتُ أَعْلَى سَمَاءْ .

يوسف رزوقة

حسن حسني عبد الوهاب كما عرفته

بقلم : شارل بيلا

أتشرف بتناول الكلام هنا بصفتي ممثلا للمجمع الفرنسي للكتابات والآداب وسأحاول أن أصف العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب كما عرفته .

لقد نوه اصدقاء الفقيد بفضائله الفائقة ومحاسنه الرائعة فرثوه نثرا وشعرا وترجموا له في الجرائد والمجلات دون ان يذكروا في اغلب الاحوال انه كان عضوا من اعضاء اللجنة الادارية لدائرة المعارف الاسلامية منذ سنين طوال وانه ساهم في تحريرها انفس مساهمة ، فلما شرعنا في اعداد ذيل للاجزاء الاولى من الطبعة الثانية وذلك بعد وفاة المغفور له بعدة اعوام ، أمسى من الممكن ان ندرج ترجمته في ذلك الملحق لاننا اشترطنا على أنفسنا الا نترجم لاشخاص لم يزالوا على قيد الحياة ، فطلبنا اذن الى صديقنا الشاذلي بويحيى أن يعقد له مقالة وافية وان كانت بطبيعة الحال وجيزة غير ضافية .

فيغنيني كل ما قيل في شخصية المرحوم عن تكرار ما خصص له من عبارات المدح وكلمات الحمد وسوف اقتصر على ذكر ما قربني اليه من الفرص السعيدة والظروف الغريبة والاتفاقات العجيبة لكي أبين ما عساه ان يكشف عن زاوية من طبيعته النبيلة وجانب من ذهنيته العالية .

كان صاحب كرسي اللغة العربية والادب العربي في جامعة الجزائر ـ الاستاذ هنري بيريس ـ قد فكر ، قبل الحرب العالمية الثانية بقليل ، في

اصدار مجموعة من الكتب سماها بالمكتبة العربية الفرنسية وجعل ينجز مشروعه بمساعدة لفيف من الاساتذة والمدرسين المستعدين للعمل في احياء التراث الادبي وتسهيل دراسته وتدريسه .

فكان الاستاذ وطيد النية على ان ينشر في الجزائر سلسلة كتب يتضمن كل واحد منها مقدمة حول حياة الكاتب وآثاره ثم نصا عربيا مطبوعا على الصفحات اليسرى وترجمة فرنسية على الصفحات اليمنى وفي التالي الفهارس المعتادة ، ومن مميزات النصوص المختارة وشروط اتخاذها ان تتعلق بالمغرب أو تخرج من اقلام مغربية ، منشورة كانت من قبل او آنفا ، أي غير منشورة فأعد هنري بيريس لائحة طويلة تحتوى عشرات من العناوين ووضع مقابلا لكل عنوان اسم الباحث الذي كان يرجو منه مشاركة جدية .

ولما رأى أنني لراغب في الاجابة اليه كلفني بثلاثة نصوص ، أولها « تحفة العروس » للتجاني : فجعلت اقرأ الكتاب ولكني لم البث ان تركته لان مثله انما يترجم ــ في رأيي ــ الى اللاتينية فحسب ــ مع ان «الروض العاطر» للنفزاوى نقل اخيرا الى الفرنسية ، ثم كان النص الثاني الفصل الخاص بالمغرب من فصول « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » للمقدسي ، واما الثالث فهو منها كتيب صغير يشتمل على معظم ما ابقاه الدهر من الآثار المنشورة بل المسجوعة التي خلفها ابن شرف القيرواني فكان العلامة حسن حسني عبد الوهاب حقق ذلك النص العويص معتمدا على مخطوط تونسي ومخطوط آخر محفوظ في مكتبة الاسكوريال ونشره في مجلة « المقتبس » سنة 1911/1329 موسوما بـ « رسائل الانتقاد » فلا أدرى لماذا اختار ذلك العنوان لان الكتاب ــ أو بالاحرى ، ما تبقى منه ــ لا يمت الى فن الرسالة بسبب ، ومع ذلك اعاد صديقي المرحوم محمد كرد على نشره في مجموعته النفيسة المعروفة بـ « رسائل البلغاء » دون ان يغير العنوان الاول ، ثم جاء عبد العزيز الخانجي فعثر على مخطوط جديد موجود في مكتبة خصوصية ونشره بالقاهرة سنة 1926/1344 تحت العنوان الشامل لمؤلفات ابن شرف الضائع أكثرها اى « اعلام الكلام » وبما ان هذا المخطوط كان أحسن من الاصلين اللذين اعتمد عليهما عبد الوهاب حق لي ان اطمئن اليه ، كما انني استفدت من الجزء الرابع من «ذخيرة» ابن بسام حيث يوجد قسم من متن الكتاب .

فلما صدر عملي المتألف من مقدمة ونص وترجمة وتعليقات وفهرس وارسلت بنسخة منه الى حسن حسني عبد الوهاب نشب بيني وبينه شبه

خلاف لانى كنت اتخذت العنوان الوارد فى آخر طبعته وهو « تمت المقامة المعروفة بمسائل الانتقاد » فيلوح جليا ان ابن شرف لم يرد ان يكتب رسائل بل مقامات منسوجة على منوال مقامات الهمذانى وان لم يذكرها البتة . وحذا حذو ابن دريد فسمى « حديثا » كل فصل من فصول كتابه ، فكان لعلامة طاعن فى السن ان يغتاظ على مبتدىء تجاسر على اعادة النظر فى تحقيق نص قام به وقبله محمد كرد علي فنشره مرتين : مرة فى « المقتبس » ومرة فى « رسائل البلغاء » ، فبالعكس اقتصر عبد الوهاب على اتخاذ موقف جاحظى فشك فى صحة العنوان الذى اخترته وقال : « فى ذلك نظر » .

انى لمعترف باننى لم أكن عند بداية العمل قد سمعت بالسيد حسن حسنى عبد الوهاب ومضى أمد طويل قبل ان ألاقيه شخصيا فانما لمحته فى باريس سنة 1948 بمناسبة مؤتمر المستشرقين الدولى وهو يمشى فى الشارع وعلى رأسه طربوش يميزه عن غيره من المارة ، ثم أدنانى اليه النزاع العلمى الذى أحدثه ابن شرف ومقامته ، فأتاح لى ذلك ان أعاشره بعد ان اتصت به بصفة غير مباشرة بفضل كتبه المختلفة أمثال «المنتخب المدرسى من الادب التونسى» و « بساط العقيق » فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق و « شهيرات التونسيات » وغير ذلك من نفيس المؤلفات ودقيق التعليقات .

فلم يتفاقم خلافنا الاول بل تصالحنا سريعا فسامحنى عبد الوهاب ورحبنى بلطفه المشهور ، الا ان نزاعا جديدا لم يلبث ان نشب بعد ان ترجمت « كتاب التبصر بالتجارة » الذى كان أخرج نصه من مخطوطة محفوظة بمكتبة بسوق العطارين بتونس ونشره فى « مجلة المجمع العلمى العربى » سنة 1934 غير شاك فى صحة نسبته الى صديقى الجاحظ ، ومما وطد يقينه ان الاب انستاس مارى الكرملى مدح طبعته ذاهبا الى ان «النفس الجاحظية ظاهرة فى كل كلمة» ، أما أنا فلم أشم فى « كتاب التبصر بالتجارة » رائحة جاحظية وأيقنت ان النص منحول لانه غير مذكور فى المصادر القديمة ما عدا « ثمار القلوب » و «لطائف المعارف» للثعالبى ، ثم بدا لى فندمت ندامة كبيرة على ما أبديته من حكم صارم متسرع .

لقد أشرت الى خلافى مع حسن حسنى عبد الوهاب فيما يخص عنوان المقامة التى تركها لنا ابن شرف ونسبة « التبصر بالتجارة » المشكوك فى صحتها لكى ألح على لطفه وسماحه اذ لم يرد حكمى ردا ولا رفضه رفضا فى كلتا الحالتين ، وان لم يقبله طوعا ولا ارتاح اليه عن طيبة خاطر .

ومما يدل على طول باعه وسعة صدره انه لم يأل جهدا بعد ذلك الحين فى اعانتى على التماسى نادر المخطوطات والحصول على نفيس المستندات ، فكنت أزوره كلما أسافر الى تونس ويقابلنى ببشاشته المعتادة فى داره الواقعة شارع ابن خلدون ٠ فما اطرف هذا الرمز واحسن هذه العلاقة بين أديب القرن العشرين وعالم القرن الرابع عشر ! فأتذكر انه اعتذر إلـيّ مرة فغادر القاعة التى كنا نتجاذب فيها اطراف الحديث ثم عاد وفى يده ظرف غليظ ، فناولنيه قائلا : « C'est une petite chose » ولما فضضت ختام الظرف وجدت داخله صورة شمسية من مخطوطة مبتورة كان اقتناها عبد الوهاب بالقاهرة ، فلم أشك البتة ، هذه المرة ، فى نوع القطعة وصحة نسبتها الى أبى عثمان ولكنى لم ادر من أى كتاب أتت ، ولما رأيت ان النص يتعلق بمعاوية توهمت انه قسم من رسالة جاحظية فى مؤسس الدولة الأموية وخلافته واعتمدت عليه لتحرير مقالة حول تشيع الناس لمعاوية فى القرن الثالث الهجرى ، ثم حصلت على مخطوطة كاملة من رسالة الجاحظ فى « الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبى طالب فى فعله» وساعدتنى مخطوطة عبد الوهاب على تحقيق الرسالة فنشرتها فى مجلة « المشرق » .

ولخلاله الكريمة التى بها يتسم .. ينبغى ان أضيف الى ما شاهدته راسا من خصاله الشريفة وتصرفاته الانيقة حرصه على جمع المخطوطات العربية الموجودة فى البلاد التونسية وغيرها ، فجمع طول حياته عددا وافرا من آثار الكتاب التونسيين وغير التونسيين فانجاها فى كثير من الاحوال من الضياع والخراب والتلف وخدم العلم ايما خدمة ، ومما سـرنى ان المخطوطات التى حصل عليها مودعة الآن فى المكتبة الاهلية بتونس وقد ظهر فهرسها فى العدد السابع المؤرخ سنة 1970 من « حوليات الجامعة التونسية » .

فمن أعجب العجب ان القائمة المذكورة تشتمل على 951 رقما وبينما يدل معظم الارقام على مخطوطة بسيطة تتضمن نصا واحدا فحسب قد يخص بعضها مجموعا من النصوص ، ولقد حسبت المجاميع فوجدتها 171 يحتوى جميعها على 752 كتابا أو رسالة أو قصيدة أو غير ذلك من منتجات المؤلفين والمبدعين ، والحاصل ان المكتبة العربية ورثت دفعة واحدة 1533 نصا .

ثم لم أرد أن أقف عند هذا الحد وحاولت ان ارتب المخطوطات حسب مضمونها فوجدتها أشد تنوعا من أن ترتب دون أن يمل المستمع أو القارىء سرد أصنافها وفنونها وعلى كل حال فهى مرتبة على حسب موضوعها فى

الفهرس المفصل الموجود الآن فى المكتبة . فسوف اكتفي بملاحظات عـامة لا تخلو عندى من أهمية ـ يجب أن أذكر باديء ذى بدء أن انتباهى قد لفتته عدة مصاحف (891 ـ 898) منها مصحف على الرق (891) كتب وذهب ببلنسية سنة 1163/558 وهو أقدم مخطوط موجود فى المجموعة ، ثم تعجبت من وقوفى على « قصة الحسين السبط » (318) لأبى مخنف ، وكذلك عثرت على نسختين (556 و 3/730) من « تحفة الاريب فى الرد على أهل الصليب » لعبد الله بن عبد الله المترجم لم يعتمد عليهما محقق النص « Miguel de Epalza » الـذى نشره بروما سنة 1971 مع ان أولاهما من أقدم مخطوطات هـذا الكتاب اذ كتبت سنة 1709/1141 ، ثم لاحظت ان حسن حسنى عبد الوهاب حصل على أكثر من 150 شرحا أو حاشية على كتب الحديث والفقه والشعر وحـوالى 50 ديوانا أو مختارا شعريا ، فلا تخلو علوم الدين على الاطـلاق من ان تحتـل بطبيعة الحال محلا واسعا فى المجموعة كتفسير القرآن والقراءات والحـديث والعقائد والفقه وغير ذلك مما لا بد من وجوده فى مكتبة اسلامية من كتب دينية لست بحاجة الى تعدادها وانما أخص بالذكر هنا « أجـوبة الامام ابن تيمية فى الاضحية والغراسة والمساقاة، الخ (4/667) ورسالة «فى البـن وهو المسمى بالقهوة » (680) لمؤلف مجهول الاسم ورسـالة اخـرى « فى أحكام بيت المال » (436) واخرى « فى استخـدام أهـل الـذمة وتحـريم استخدامهم » (887) و « الرهص والوقص لمستحل الـرقص » (7/187) ونسخة من « الملل والنحل » للشهرستانى (765) ، اما الفتاوى فقد سجلت 10 أجزاء من « المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل افريقية والاندلس وبلاد المغرب » للونشريسى (446 ـ 455 ـ 806) ، فكـان من الطبيعى الا يجمع المغفور له كثيرا من كتب الفلسفة وانما يلاحظ ان المؤلفات التاريخية قليلة بالنسبة الى غيرهـا من المصنفـات كالشـروح مثلا ، الا ان 8 أجـزاء (511 ـ 514) من « اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان » لابن أبى الضياف موجودة فى المجموعة الى جانب قليل من الرحلات والبرامج لا سيما ان « برنامج الشيوخ المقدمين للامامة والخطابة بالجامع الاعظم جامع الزيتونة بتونس من لدن ابن عرفة الى سنة 1819/1234 » (419) لا ينتمى فيما يظهر الى فن الفهرسة التى تشتمل على اسماء شيوخ عـالم من العلمـاء والكتب التى قرأها عليهم . وشاهدت ان للمرحوم اهتماما خاصا بالتصوف وتراجم أهله مثل « التشوف » للشاذلى (653) وخـاصة بفـن المنـاقب ، واعترف باننى اراجع القائمة المنشورة فى حوليات الجامعة عند بحثى فى شتى الموضوعات وعلى سبيل المثل ينبغى أن أذكر هنا انى استندت اليها لما درست

المناقب وكتبت فى هذا الفن الممتع بحثا سوف يدرج فى دائرة المعارف الاسلامية اذ لاح لى ان عبد الوهاب التمس بصفة خاصة المخطوطات التونسية التى تتضمن ترجمة صالحة أو صالح مشهور فلا يخلو هذا الضرب من الكتب من قيمة تاريخية فيما يخص عادات الشعب بالنسبة الى اصحاب المعجزات والكرامات ، ومن طريف الاتفاق ان المخطوطة والمرقومة 655 مثلا تحتوى على ما يقارب العشرين من «المناقب» ويجاوز عدد المتون الداخلة فى هذا الفن الخمسين .

ومما أهم المرحوم أيضا حوالى 50 كناشا فى الطب العلمى والشعبى كـ « الهارونية » المشهورة (861) ومؤلفات أخرى فى العلوم الطبيعية مثل « ازهار الافكار فى جواهر الاحجار » للتيفاشى (779) وعدة رسائل فى الامور السحرية ونحو 30 مخطوطة فى العلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والحساب والتوقيت وما الى ذلك ، اما التعليم فلا يمثله الا عناوين قليلة وقد ذكرت قلة البرامج الحقيقية وانما سجلت ثبتين (733/1 ــ 2) قديمين يرجعان الى سنة 1474/670 وسنة 1466/664 ، الى جانب عدة « اجازات » (187/3 ، 488 ، 708 ، 747/1 ــ 4 ، 437 ، 733/3) وفى التالى لا تخلو مكتبة المغفور له من ان تتضمن مخطوطات أدبية ، منها بعض الامثال (584 ، 613) و « مقامات » الحريرى والورغى وغيره من الكتاب التونسيين (184/9 ، 403 ، 41 ، 475 ، 865) ونسخة من « تحفة العروس » (484) .

الى حد الآن لم أذكر آثار حسن حسنى عبد الوهاب الشخصية الا تلميحا ولست بحاجة الى اطالة الكلام فيها اذ يمكننى ان الخص رأيي قائلا : إن لها طابعا خاصا يذكر مميزات ذوى نبوغ مرموق من أدباء الماضى ولو طلب الي أن أشخص عبد الوهاب بكلمة واحدة لقلت : إنه كان أديبا خالصا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

شارل بيلا
(فرنسا)

رأسي يُشقلبُ راحتي

شعر : الصّادق شرف
(أبو وجدان)

الأرضُ رأسي .. والسماءُ حذائي   لوقلت : « تحيا الحاء.. تحيا بائي ! »
رأسي يقلّبني .. يُشقلِبُ راحتي   علياؤه دوسٌ على عليائي !
كتفاي داسَ عليهما بحذائه   وشراعه قد دَاسَ فوق لوائي ؟
فكأننا خصمان فوق سفينة   فقدا التوازن في انصِداع الماء
خصمي المياهُ تلفه بصداعها   وصداعه ينداح في أعضائي
هاني أقلّبه .. ويقلبني .. وتقـ   ـلبنا معا أرجوحةُ الأنواءِ
منّي يضجّ — كدولة عربية   من جارتيها — وهو رأسُ بلائي
لا يستقر لنا قرارٌ ، بيننا   حرب .. ونحن نحاطُ بالأعداء !
أرجوحتان لَوِ اتّحدنا ظنّنَا   من لا يرى .. فردا ، ونحن ثنائي
ما في البلاغات الكثيرة بيننا   خبرٌ يشرّف نشرةَ الأنباء ..
إن أخبروا : « نزل الرئيس » فانه   رأسي على كتفيَّ بالأعباءِ
مهلا ! ولا وزراء عنده مطلقا   إلا من العُشّاق .. والشعراء !
رأسي يؤسّس « دولة للحب » في   زمن التحام الحقد بالبغضاء
وشعارُها المنقوش فوق جباهنا :   « قلمُ المفكر سَاس كلّ بناء »
يا للبناء الفوضوي تَفَقّسَتْ   جدرانه في غفلة الخبراءِ .. !

الحب : دستور ينظم دولتي .   والشعب : كل العاشقين ورائي
للعاشقين أنا هتفت ولا هنا   ف بغير : «تحيا الحاء .. تحيا بائي !»
مرآة بيتي عنديَ : التلفاز إذ   تبدو الوجوهُ بها بغير طلاء
والمطربون هُمُ : العصافير التي   هتفت لشعب الحبّ دون هراء
وإذاعتي : سماعةٌ هتفتْ .. ليفـ   ـتحني بها جرسٌ على الظرفاء
فإذا انفتحت على خليل أنتشي   وعلى الخليلة تنتشي ورقائي
وصحافتي : ورق الرسائل عندما   يأتي البريدُ بها من القُرّاء
وجواز أسفاري : كتابٌ من دمي   أشرّتُه .. وقصائدي : سفرائي
راياتنا : تلك المناديل التي   بين المطار تلوحُ .. والميناءِ
لا يصطفي المنديل ، عنده يستوي   التلويح للأحباب والغرباء
وملوّح باقٍ .. وآخر راحل   وكلاهما ريشان فوق هواءِ
كم راحلٍ باقٍ ! ويرحل من بقى   سُفُنُ الرحيل شواطىءٌ لبقائي .

الصادق شرف

تحيا الحاء .. تحيا الباء ..

تصدر قريبا للشاعر الصادق شرف عن مؤسسة « الأخلاء » المجموعة الشعرية السابعة وعنوانها : « تحيا الحاء .. تحيا الباء .. »

عندما يكبر الحلم

قصة : عايده عبد الحميد

لم يعد البيت يسعهما بل لم يعد يسع الصمت الذى كان يقتات من اعصابهما .. كانا بعد ان يعودا من العمل يتناولان ما يسد الرمق ثم يخرجان يجوبان الشارع وكانهما يبحثان عن شيء قد ضاع منهما ..

لماذا يكون مزاجه متقلبا فى هذه الايام ؟ ولماذا لا يستقر على حال ؟ كأنها لم تعد تعرفه .. كأنه ليس زوجها .. فى تصرفاته شيء من الغرابة لو ارادت ان تنسبه الى بلد مادرت الى اى بلد تجعله ينتسب ولو حاولت ان تجعله ينتمى الى ثقافة ما درت الى اى نوع من انواع الثقافة ، هو ينتمى ..

بالرغم من انه يمارس حياة قد تبدو قريبة من النضج والتحرر فهو يبدو ضائعا فى قرارة نفسه لم يحدد بعد ما يريد وما لا يريد ..

قال لها مرة .

وكانه يعتذر عن شيء صدر منه :

« يجب الا تحكمى علي ، بما ترينه احيانا من تصرفاتى .. هناك لحظات تدفعنا الى ان نمارس فيها اشياء ربما كنا نريدها وربما كنا لا نريدها ومع ذلك فنحن نمارسها .. »

ماذا تقول .. يخيل اليها انها لم تعد تفهم لغته فى هذه الايام ..

* * *

كانا كلما اعياهما السير يقصدان البحر يستمعان الى الموج ويرقبان المياه والرمال والمراكب الآتية من بعيد ..

ساعتها كانت تحس بأشياء كثيرة تتحرك بقلبها ..

القصور العابقة برائحة العز الغابر والمدن الاثرية التى ركضا فيهما معا فتصبب عرقهما وتعالت ضحكاتهما وانطلقت بهما الاحلام الى أبعد من الخيال..

أحبت وهى معه كل فصول السنة وخرجت تجوب معه الشوارع فى أيام الشتاء الثلجية وفى أيام الصيف القائظة ..

كان يحب فيها دفء الانثى وكانت ترى فيه أفقها واكتمالا طبيعيا لذاتها.. وكان اسمها أجمل شىء سمعته ينطق به ..

كانا يشعران فى أحيان كثيرة بحدة القيد الذى كان يعطل سيرهما ولكن شيئا غامضا لم تفهمه ولم يفهمه كان يجعلهما يذوبان رغم بعد المسافة بينهما ورغم التنائى ورغم الترحال ..

كان يكفيها ان تكون معه وكان يقول لها فى كل مرة يراها فيها :

« جميل جدا ان نكون معا » كان يقول ذلك دون ان يضيف شيئا آخر ..

وكانت ــ وباخلاص ــ تحس بهذا الجمال وهى فى رفقته ..

الدنيا تبدو لها أجمل مما هى عليه عادة ..

كانا يسرحان ويمرحان كالاطفال وكانت لقاءاتهما فى غاية العذوبة والبساطة .. كانت سعيدة به وكان سعيدا بها وكانا فى قمة الفرح لا يشغلهما التفكير فى الغد القريب ..

غريب .. كيف تذبل العواطف بمثل هذه السرعة ؟

* * *

اثر مشاحنة بينهما تقول :

« كنت أجدك لطيفا .. مشرقا .. خفيف الروح والحركة .. ما ..

قبل ان تكمل يقول فى غضب :

« ألم تتبينى بعد مدى النحول الذى طرأ عليك فى هذه الايام الاخيرة أيتها السيدة ؟

تجيب وكأنها تزكى ما قاله :

« بلى ، منذ ان عرفتك وأنا أسعى الى ارضائك .. اعلم ان كل شيء في قد تبدل وانتصاحب الفضل علي فى ذلك .. فانت الذى علمتنى التحدى وانت الذى علمتنى خرق ما تعارف عليه الناس ..

علمتنى كيف أتمسك برأيي وكيف احتقر الساذج والجاهل وكيف أتمرد على عادات وتقاليد خرافية ..

« المفروض والحال هذه ان تعجب بما صنعتـه يـداك وان تـزداد منـي اقترابـا .. »

يرد عليها فى تبرم :

« بالعكس أصبحت انكر فيك يا سيدتى ما ابتدعته يداى .. لقد اجهزت على تلك الطيبة الصافية التى كانت سر انجذابى اليك ..

اليوم فقط عرفت اننى كنت أحمق .. كنت أجهل ان الذى فتننى فيك هى تلك البراءة العذرية التى لم يعكرها دهاء .. »

تقول وابتسامة سخرية ترتسم فوق شفتيها :

« الى أى شيء كنت تطمح اذن بتوجيهك اياى تلك الوجهة التى اردتها ؟

يـرد :

« أردت أن أربي فيك الارادة بان تعتمدى على نفسك فى تصريف شؤون حياتك .. أردت أن أجعلك تقدرين المسؤولية حق قدرها حتى تكونى لى سندا وحتى تهتمى بروحى وفكرى كاهتمامك بجسدى وبمالى .. »

تقول فى زهو وكأنها تتحداه :

« ليس من اليسير أن نبدل أخلاق الآخرين وعـاداتهم وتقاليـدهم التى تعارفوا عليها جيلا بعد جيل ..

« ولكننى وكما ترى ـ تبدلت .. قويت ارادتى وتحررت مما كان يضغط فوق ذهنى من خرافات وبدع .. وأصبحت جريئة .. أعبـر عن رأيى بكـل ثقة وأدافع عنه بكل قوة وأصبحت أحلامى التى كانت تنحصر فى ان يصبح لدي طفل أمسكه بين ذراعى ـ والتى كنت تسخر منها وتضحك أحيانـا ـ

تتسع الى ان اشاركك أحلامك وأفكارك واهتم مثلك بقضايا كبرى تشغل بـالك ..

لماذا لا تفخر بي وقد اصبحت كما تحلم ٠٠ ؟! معى شهادة عالية وشخصية قوية وآراء تقدمية كنت تطلبها فى بالحاح ٠٠»

يجيب فى نبرة كلها ألم وقد خفت صوته قليلا :

«الذى حدث اننى اصبحت أخافك ٠٠ لست المرأة التى كنت أريد ٠٠»

تقترب منه .. تقول :

«ألم تردنى جميلة ٠٠ متعلمة ٠٠ ذكية وجريئة ٠ ماذا تطلب أكثر من ذلك؟»

تخرج الكلمات من بين أسنانه محدثة صوتا مزعجا :

« لم أعد أرى فيك غير الانانية وحب الغطرسة والانفراد بالرأى .. »

تقول وقد عيل صبرها وعلا صوتها :

«لماذا لم ترض بى على علاتى اذن؟»

يخفت صوتها : تواصل : «يوم كنت احلـم بأن أمسـك بين ذراعى طفـلا له لون عينيك» ٠

كانه يحدث نفسه يقول :

« كنتُ استمـع الى اصـدقـائى يقـولـون وهـم فى شهـر العسـل : ارجـو مـن اللـه الا يغيـر الزمـن مـن اخـلاق زوجتـى وطبـاعهـا شيئـا لم أقدر ما كانـوا يقولونه الا بعد ان فقـدت فيـك المـرأة التى أحببتها ٠٠ وفقدت بفقدانها حلمى الاكبر .. جهاد الذى كنت حريصا على ان أربيه حسب قواعد ارتأيتها مسبقا تؤهله لان أجعل منه جهاد المنتظر .. كان جهاد ــ وأنا معك ــ حلمى الاكبر ٠٠ »

تقول فى استسلام :

« ان شاء الله سيأتى يوم تراه فيه » .

يقول فى أسى :

« لقد تركت صديقتى الباريسية لا لشىء الا لانهـا كانت تنكـر علي من اكون .. تنكر علي كونى أتشبث بما يتشبث به أهلى .. لم أكن أحسب اننى سأصوغ منك مخلوقا على مثالها .. »

هى فى غيظ :-

« ها هو حلمك يتحقق فترانى امرأة « كاملة » جديرة بأن تكـون أمـا لابنـك » ..

يقول وقد اكتسى صوته شيئا من المرارة :

« أين .. أين هو ابنى الذى تتحدثين عنه ؟ »

تقول وقد اشتد بها الضجر :

« لماذا تدهشك منى هذه الجرأة وهذا العزم وانت الذى دعوتنى اليهـا .. يبدو انك لم تكن تقدر ما فجرت فى من قوى ..

لم تعد حياتى بالقرب منك خاملة تهدد شخصيتك وعملك ووضعك وسط الآخـرين ..

ألم نتفق على الا يأتى جهاد الا بعد ان نحصل على الشهادة ؟ تذكر ! »

يجيب فى تهكم وعلامات الأسى بادية عليه :

«واليوم وبعد ان مضت خمس سنـوات عـلى زواجنـا يقـول الطبيـب : تريثا قليلا .. فلقد كان لوسائل منع الحمل اثرها البالـغ عـلى الرحـم .. أسمعت يا سيدتى ..؟ »

ترد عليه وكان صبرها قد نفذ :

« اسمح لى بأن أقول لك انك يا زوجى العزيز مصاب بجنون العظمـة .. زين لك خيالك الجامح ان تجعلنى أشبه صديقتك الباريسية وأمـك فى آن واحد .. وانى لأصارحك بأن تعاملك معى قـد ارهقنى ولفنى فى شبكـة من الضجر والتعب .. نعم لقد تعبت .

أتعبنى خوفك منى .. على شخصيتك وعلى عبقريتك واليـوم خـوفك على تواصلك وعلى أحلامك .. يظهر انك لم تتحرر بعد من قيودك .. لم تعرف بعد ما تريد وما لا تريد ..

الست أنت المذنب ·· فلم كل هذا الحنق ؟ ألم يقل لك الطبيب ان المسألة تتطلب صبرا وطول نفس فعلام القلق ولم هذا التبرم ؟

لقد تعبت ·· تعبت ·· تعبت !»

* * *

قالت لها الممرضة وهى تقودها الى غرفة العمليات :

« أرجو أن تكون لك القدرة على التحمل » .

أجابتها بلهجة صارمة :

« أنا واثقة من قدرتى » .

قالت الممرضة :

« ليس المهم أن يصبح لديك طفل .. الاهم ان تنجح العملية وان تقومى سالمة » .

لماذا تحاول هذه الممرضة ان تبعث الرعب الى نفسها وان تزيد من مخاوفها؟،

تواصل الممرضة لتقول بصوت هادىء عميق :

« انه لفخر لى ان أرى امرأة فى مثل شجاعتك ·· ولكن ·· وكما تعلمين · القضية ليست مضمونة مائة بالمائة .. وهى قضية حياة أو موت .. لقد حذر الدكتور زوجك من النتائج التى يمكن أن تسفر عنها العملية ··»

كانت جالسة فى السرير ومستندة الى وسائد خلف ظهرها ..

لم تستطع انتحبس دموعها طويلا فتركتها تتسابق فى صمت ..

دخل عليها زوجها فجأة قال :

« أتبكين ؟ »

كانت تنظر اليه وكأنها ترى عقدة الذنب معلقة فى نظراته المتوسلة اليها .. لم تستطع ان ترد عليها بشىء ··

احتضنها وكأنه يستنجد بها .. قال :

« الامر بسيط جدا .. لقد أكد لى بعض اصدقائى الاطباء ذلك » .

ليته سكت .. ليته لم يتكلم .. لماذا يغير لها وجه الحقيقة ؟

بدأ شكله اذ ذاك غريبا ومضحكا ··

لماذا تخاطر بحياتها فى سبيل قضية لا ذنب لها فيها ؟

من يضمن لها انها ستعود الى الحياة مرة ثانية ؟

أيعتبر عملها هذا بطولة منها وتضحية ؟

أم انها هى الاخرى تريد طفلا يفتق لديها مشاعر أمومة طاغية ويعمق لديها الشعور بانها تحيا ..؟

لم تعرف نفسها سخية الدمع كما هى اليوم ..

جاءت الممرضة لتعطيها دواء مسكنا .. قالت :

« لم هذا البكاء ؟ »

ردت عليها فى ثبات

« لفرحتي بأنني سأصبح قادرة على ان يكون لدى طفل احتضنه وامنحه دفئى .. وحنانى .. »

اغرورقت عينا الممرضة بالدموع .. قالت : « كان الله معك » .

* * *

كان المطر فى الخارج أشد ما يكون غزارة .. وكانت بين خطوة واخرى تغوص فى برك المطر فتنهض من جديد لتعاود المشى وتظل تمشى حتى تصل الى بناية عالية .. انها الشركة التى يديرها زوجها .. تلقى بنفسها فيها وهى نصف مبللة .. يرحب بها الحاجب ويقودها الى مكتب زوجها .. يهرع الزوج لاستقبالها يقول فى خوف وقد بدت الحيرة على وجهه ..

« هل حدث شىء ؟ ما الذى أتى بك ؟

ارتمت بين احضانه وهى تضحك وتبكى قالت :

«لقد جئتك اقرأ عليك برقية وصلتنى اليوم فحواها : أبى .. اننى قادم .. لا تخف » .

الامضاء : ابنك جهاد .

اخذ يحدق فيها خائفا ومشدوها .. انه لا يكاد يصدق ما تقوله ..

يسأل : « أأنت .. أأنت حامل ولم يمض على وقت العملية غير شهور قليلة » ؟!

أومأت اليه برأسها وقد اختلط دمعها بضحكاتها قالت :

« ذلك ما أكده لى الطبيب قبل حين .. انها قدرة ربنا .. »

ـ « حبيبتى » قالها فى حرارة وهو يضغط على الحروف ضغطا وقد فاضت الفرحة من عينيه لتشمل كل كيانه ..

أحاطها بذراعيه يقبلها كواحد مخبول .. تقول : « لا تنس اننا بمقر عملك » .

يقول : « أريد أن أعلن على الملا فرحتى .. انها فرحة الانسان الذى حالفه القدر برغم بؤسه ـ شكرا لك يا رب .. »

ويعود الى احتضانها والى تقبيلها وكانه قد نسى أين يوجد ومن يكون ..

ظلت واقفة تتابع حركاته وكأنها تحلم .. كأنها تشفق عليه .. لقد استحال فى دقائق الى طاقة جبارة حية بعد ان كاد اليأس يقتله ..

وتساءلت بينها وبين نفسها :

« لو لم تنجح العملية .. أى مصير كان ينتظرها ؟؟ »

ادركت اذذاك ان الحلم عندما يكبر يكون الحافز على الفرحة ويكون القوة ويكون النعمة .. وان كان يدفع صاحبه الى ان يفتديه بعذابه وبدمه وباعصابه .. وربما أخذ هذا الحلم حجما أكبر من حجم صاحبه ففتك به كما يفتك السرطان بالخلايا التى يصيبها » .

عايدة عبد الحميد

الفكر الاصلاحي من خلال شعر وخواطر الطاهر الحداد

بقلم : رمضان لطيفي

توطئــة :

من المعروف أن الطاهر الحداد لم يترك ديوانا شعريا مطبوعا فى كتاب مستقل بذاته كبقية انتاجه الذى خص به العمال والمرأة ، لذا اعتمدنا فى هذه القراءة لأشعاره على كتاب الاستاذين : الجيلانى بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقى « حياة الطاهر الحداد » كذلك كتاب المرحوم أحمد الدرعى : « حياة الطاهر الحداد » وفى هذه القراءة سنقارن بين الاشعار والخواطر التى تشكل كتابا منفردا صدر عن الدار العربية للكتاب سنة 1974 .

لقد تأثر الحداد بموجة الاصلاح التى ظهرت على يد الافغانى ومحمد عبده وخير الدين التونسى ... فطبع تفكيره بالفكر الاصلاحى كما تتلمذ على يد الشيخ حمد المرابط شهر العنابى (1) والشيخ سعد السطيفى الجزائرى

---

(1) هو الشيخ محمد بن أحمد المرابط شهر العنابى من علماء تونس وفقهائها ولد بتونس سنة 1887 ودرس بالزيتونة حيث تدرج الى مرتبة الاستاذية وتولى خطة الافتاء المالكى بالديوان من سنة 1933 الى تاريخ توحيد القضاء سنة 1956 وهى سنة وفاته ، والشيخ محمد العنابى هو والد الاديب المحامى الطيب العنابى المتوفى فى غضون شهر سبتمبر 1984 ، لمزيد التوضيحات انظر كتاب : « دفاعا عن الحداد » ص 47 ، تاليف أحمد الدرعى ، تحقيق محمد أنور بوسنينه .

الأصل (2) والمصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس (3) وهؤلاء الشيوخ عرفوا بنزعة الاصلاح سواء في تونس أو الجزائر .

وفي قراءتنا المقارنة بين الاشعار والخواطر أردنا أن نبين الخيط الرابط بين نتاجين مختلفين فنيا ومتحدين رؤية لدى كاتب .. شاعر .

ففي الشعر يظهر الحداد واقعيا ملتصقا بقضايا شعبه وأمته بعيدا عن الرومنطيقية التي ظهرت أيام حياته كآخر تقليعة وصلت الى بلاد المشرق والمغرب العربيين عن طريق الترجمة والادب المهجري ، فاستهوت صديقه الشابي وطبعت أشعاره ومحاضراته بميسمها .

ورغم النكسة التي أصابت الحداد من جراء معركة غوغائية بعيدة كل البعد عن روح النقد العلمي النزيه لم يسقط شعره في بوتقة الرومنسية والانطواء على الذات بل ظل يخاطب قومه شعرا ونثرا في صمود وثبات لان ذلتهم ذله وعزتم عزه كما يقول في الابيات التالية من قصيدة « أملي » :

عشت وحيدا فيك أندب حظهم وحظي بهم ندبا يذيب حديدا
فذلتهم ذلي وعزي بعزهم وإن وهبوني للسعير وقودا

المرحلة السياسية :

لقد التحم الحداد بالشعر عند انضمامه للحزب الحر الدستوري القديم وكان من أبرز عناصره ... فأم النوادي يخطب في الجماهير التي كانت

(2) الشيخ سعد السطيفي الجزائري الاصل تعلم بمصر وتونس وكان عالما حقا بجميع العلوم التي تدرس بين عرصات الجامع الاعظم فقيها بها ، لازمه الحداد مع جملة من اخوانه وأخذ عنه فهم تلك العلوم حتى أدركها جيدا انظر كتاب « حياة الطاهر الحداد » ، ص 18 ، طبع الدار العربية للكتاب ، تحقيق م ـ أ ـ بوسنينة .

(3) عبد الحميد بن باديس 1880 ـ 1940 من رواد الاصلاح في الجزائر ومن أكبر الدعاة الى الحفاظ على اسلامها وعروبتها ونشر اللغة العربية في ربوعها وهو من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائرين صحبة رفيقه محمد البشير الابراهيمي انظر كتاب « دفاعا عن الحداد » ، ص 47 .

تجتمع أسبوعيا ولا يتخلف عن مخالطة أنشطهم وأحزمهم فى الدعاية وأرغبهم فى الوطنية ينير لهم السبيل ويكشف لهم عن طرائق التفكير لا يألو جهدا فى نصحهم وتنويرهم وكان مجيؤه اليهم عيدا ، يلتفون حوله ليلتقطوا الدرر المتساقطة من فيه ولم يكن أبدا ليفعل ذلك مع أعيان الدستوريين وأثراهم وأوجههم وإنما كان ميزانه فيهم الاخلاص والاستعداد للعمل فقد يقصد العملة منهم وأصحاب المصانع والاجراء مهما كانت اشتغالاتهم ومهما كانت ثروتهم (4) .

هكذا كان الحداد محركا نشطا يذكي النفوس بحب الوطن كسياسي محنك على صغر سنه ولا يبخل بنصيحة يوجهها لقومه سواء عن طريق الخطب والمقالات السياسية أو بقصائد تطفح بحماس فياض كما فى قصيدته « نصيحة لقومى » التى يقول فيها :

يا قومي استمعوا للنصح يبذله   أخ لكم همه الاخلاص للوطن
إن شئتمو أن تنالوا الفوز فاتحدوا   فنحن بين نيوب الجور والوهن
ضعف نقاسيه من أمراض كبوتنا   حكم يسير بنا للهول والمحن
يا ويح قوم أضاعوا منهمو شرفا   بناه أجدادهم فى سالف الزمن
يستقبلون رزايا الدهر مفعمة   سحقا ومحقا وعارا غير مضطعن

وقصيدته « نصيحة لقومى » على ما يبدو كتبت فى المدة الزمنية الاولى من انبعاث الحزب التى اتسمت بشىء من تحرك الوفود الى باريس لمطالبة فرنسا بالدستور والبرلمان التونسيين... فرأت الحكومة الفرنسية فى مطالب التونسيين خروجا عن بنود المعاهدة وقابلت هذا التحرك بارسال مقيم عام جديد هو « لوسيان سان » الذى رفض بدوره تأسيس برلمان تونسى .

ونتيجة هذا التحرك والاحداث السخنة أظهر الباى محمد الناصر تعاطفا مع وفد الحزب المتركب من 27 عضوا والذى جاء فى خطاب أحد نوابه أمام الباى ما يلى :

---

(4) انظر كتاب « حياة الطاهر الحداد » ص 47 ، ط. الدار العربية للكتاب .

إن الامة التونسية مجمعة الارادة على أن تكون مسيرة مثل ما كان آباؤها من قبل بدستور محرر يعلن ويضمن الحقوق والحريات العمومية ، وفصل السلط عن بعضها واشراك الامة اشتراكا تاما فى الحكم .

وقد جاء فى جواب الامير :

وماذا تظنون فى أميركم ؟ ألست واحدا منكم أحس بما تحسون وأشعر كما تشعرون كونوا على ثقة بأنى سأبذل مجهوداتى فى تحقيق رغائبكم ولا أظن رجال فرنسا ــ الممتلىء تاريخها بالعدل والحرية ــ لا يبخلون بانجاز هذه المطالب (5) .

ولما علمت فرنسا بتعاطف الباى مع الوطنيين حاكت ضده مؤامرة بواسطة وزيره الاكبر الطيب الجلولى ومدير تشريفاته أدت بـه الى الاستقالة ... فأعلن الشعب الاضراب العام وتظاهر مطالبا الباى بالعدول عن قرار التخلى عن العرش (6) .

فمن البديهى أن الحداد عاش هذه الاحداث بكل جوارحه كشاب يتقد حماسا ووطنية فتأثر بالاحداث والخيبات المتكررة التى جابهت الوطنيين ، فنراه يقول فى القصيدة السالفة الذكر :

أعنيك يا أمة الخضراء فانتبهى — هبي الى المجد لا تلوي على الأفن
ظنوك امة زهد لا حياة لها — فاستخدموك لقصد ليس بالحسن
جاروا عليك احتقار فيك واستتروا — تحت العدالة فى الاوراق والالسن
عرفت ذاك فقمت اليوم منكرة — ما استدرجوك به فى حضرة الدمن
قالوا : مؤامرة . قلنا : مطالبة — بالحق لا طلب منا الى الشجن
فاستعملوا الضغط جورا كى يروا وهنا
فينا فخاب الذى راموا ولم نهن

---

(5) انظر كتاب « دماء على الحدود » ، تأليف محمد المرزوقى ص 351 ، ط. الدار العربية للكتاب .

(6) نفس المرجع ، ص 354 ــ 355 .

فحاولوا صدنا باللين عن طلب يدوم ما دام هذا الروح فى البدن
وقال : رأسهمو هذا يجوز وذا محال اجراؤه فى أيما زمن
وهكذا جبروت القوم اقعدهم عن حق شعب تجافى موقد الفتن

وأمام الخيبات التى مني بها الحزب والحياة المضطربة وأمام عدم جدوى العمل السياسى فى صلب حزب مهترىء لا يؤمن بالعمل خارج اطار النوادى والصالونات ، جمد الحداد نشاطه الحزبى مع بعض من رفاقه أمثال : أحمد الدرعى ومحمد السعيدى والطاهر محفوظ (7) .

وقبل أن ننتقل الى مرحلته الموالية نورد الخواطر عدد 54 لنقف على تلك الفترة التاريخية من الزمن فى تصوير مختزل لحالة البلاد فى العشرينات أكثر دقة وتعمقا من القصيدة :

لقد وضعنا خطة العمل مطابقة للاصول النظرية التى وضعناها لحياتنا الوطنية فرسمنا فيها الحماس البالغ والاحتجاج الشديد وبكل قوانا ضد الحوادث التى تاتى علينا من طريق الغالبين فلا تمر أيام أو أشهر على الحادث حتى ننساه كانه لم يقع أو لم يتم علينا لنشتغل بالحادث الجديد مثلما اشتغلنا فيما قبله : فمن حادث احتلال المتحزبين لاسلامبول اثر الحرب الكبرى وقبل الحرب الكمالية الى حادث تنازل الباى فى أفريل 1922 الى حادث انطباق قوانين التجنيس الفرنسى على التراب التونسى وعلى التونسيين بالخصوص الى حادث انتزاع الاملاك التى أدخلت فى جغرافية ادارة الفلاحة والغابات الى حادث تجنيس العدلية التونسية بوضع حكام فرنسيين المقرر من لجنة الاصلاحات البارسية عام 1925 الى حادث نصب تمثال الكردينال لافيجرى فى وسط العاصمة الى حادث المؤتمر الافخاريستى بتونس الى حوادث تحجير الحريات والصحافة التى تخللت كل هذه الحوادث وأخيرا فتوى قبول توبة المتجنس والابعاد فى دوار وقفل الجرائد الوطنية ذات اللسان الفرنسى ونوادى حزب الدستور وهكذا تأخذ الحوادث الواحدة بعد الاخرى كل نشاطنا فى الخصام وتوفية أحقادنا حقها فى ثورة البعض على البعض سبا ولعنا واظهار العيوب الشخصية والناس ينتظرون ويسمعون ...

والخواطر التى جاءت على امتداد صفحات 84 ـ 85 ـ 86 أوردنا معظمها على

---

(7) انظر كتاب « الطاهر الحداد : حياته وتراثه » ، تاليف الجيلانى بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقى ، ص 28 ، طبع دار بوسلامة 1963 .

الرغم من طولها لنبين أهميتها التاريخية ، وليقف القارىء على ملامح تفكير الحداد وتطوره بالمقارنة لجيله من حيث رصده للاحداث التى عاشها الوطن فى تلك الفترة وكيفية تحليلها تحليلا منطقيا بأسلوب يطفح مرارة وكثيرا ما يخرج الحداد بحلول ناجعة للنهوض بالوطن ... لكن زعماء ذلك الوقت كثيرا ما وقفوا فى وجهه وألصقوا به عديد التهم ...

بين الشيوخ والتراث :

من خلال ما أوردنا رأينا البلاد التونسية فى الثلث الاول من هذا القرن تعيش الاضطراب والفوضى ، فالجهل جثم على القطر التونسى والفقر كذلك من جراء الاستعمار ولانعدام قيادة حكيمة تحرك فى الشعب الروح الوطنية وتذكي فى شعوره أعباء المسؤولية ... فنرى الحداد فى قصيدته « بين مارق وخادر » يخاطب « تونس » فى لوعة وتفجع فيقول :

أتونس عندى فى هواك تولع وأنت منى نفس عليك تقطع
نسيت بك الدنيا وعيشى وراحتى أريد بك الحسنى وخصمك يمنع

الى أن يضيف فى هذه القصيدة مصورا المجتمع والحالة التى تردت فيها البلاد قائلا :

ظللت تعانين الحياة مريرة تزيد بك البلوى وقومك هجع
أضاعوك واستخذوا لسلطة معشر لنزف دماء الواهنين تجمعوا
شبابك موؤود ومجدك آفل ومالك منهوب وحقك ضائع
تنادين لكن من تناديه خادر يمر بعينيه الخيال فيجزع
لقد مات هذا الشعب واغتيل عزه فاصبح للارزاء فيه تولع

ومسؤولية الشعب والوطن فى غياب قيادة سياسية وطنية ـ كما ذكرنا ـ تقع على عاتق شيوخ التدريس الذين وقفوا فى وجه الحداد وأمثاله عندما طالبوا بتعصير التعليم ونشره فى أوساط الشعب .

وقف الشيوخ فى وجه الحداد وبقية المصلحين : باسم المحافظة على التراث واللغة ، فكأن العلوم الحديثة رجس من الشيطان ! إلا أن غاية ما فى الأمر هو خوف الشيوخ من فقدان عمدانهم : فى الجامع الاعظم عند حدوث التطور ، وبفقدان العمدان تفقد الجرايات ، فيقول الحداد فى قصيدته «ضحايا الماضى» :

إن سادتنا أضاعوا تراثا إنهم مثلنا كسالى حيارى
سيموتون مثلنا فى لظى الجوع سكارى وما هم بسكارى

فـي الجرايـات همهم ومنـاهـم ونـراهـم لخيـرنـا أنـصـارا
سنـرى الخبر كلنـا عن قـريب نـائيا كالنجوم فـي الأفـلاك

فاللغة والتراث العربيين بقيا فى خانة التحنيط باسم المحافظة على التراث والأصالة ، ورغم صيحات المثقفين لم يدخل الاصلاح مدارهما للتفجير والدخول بهما جدلية التطور التى حدثت وهزت الغرب لما استفاق وقفزت بدوله الى ذرى الحضارة ، فنرى الحداد فى خواطره عدد 60 ص 97 يتناول مستقبل اللغة العربية ويأتى على الظواهر السلبية التى كانت أكبر حاجز فى وجه النخبة النيرة التى طالبت بتعصير أساليب التعليم آنذاك لما للتعليم من أهمية للنهوض بالمجتمع فيقول :

لم يبق للغة العربية فى تونس غير الكلية الزيتونية وهى فبها موؤودة منذ قرون لا تعرف الحياة ولا الحياة تعرفها ، وأهل تلك الكلية يحافظون كل المحافظة على أن تبقى فى هذه الحال كامانة عهد اليهم حفظها من التبدل والتغير مقابل جرايات ينالونها وهذا شأنهم فى سائر المعارف التى يزاولونها هناك فما أشبه الكلية الزيتونية باسواق المدينة المحدقة بها فى الجمود والعجز عن التطور واذا كانت الحال متشابهة فلا عجب أن يكون مستقبل اللغة العربية مشابها لمستقبل تلك الصناعات المائتة حولها ثم لا عجب بعد هذا ان تكون حياتنا مشهدا تاريخيا يتحرك أمام أنظار الباحثين والسواحين الاجانب لا يبعد عن تمثيل أجدادنا الا بقدر ما يقتضيه اندفاعنا المستمر فى هاوية الموت .

فى هذه الفقرة صور لنا الحداد حالة اللغة العربية وشبهها بالاسواق المحيطة بالجامع لما فيها من ركود وكساد ، وبطريقة غير مباشرة جعلنا نتعرف على الوضع الاقتصادى والاجتماعى وكيف كان القائمون على هذه القطاعات لا يحركون ساكنا رغم الخطر المحدق بهم والموت البطىء الذى يلفهم ، ويضيف الحداد فى شعره واصفا ذلك فيقول :

وهـذي مـزارعنـا فـي بـوار كـذاك صناعاتنـا فـي انصرام
وتجارنـا ركـدوا تحت سقـف يـدوسهـم المـوت دون احتـرام

وأمام انعدام خطة محكمة لاستقراء التراث ونفض الغبار عنه قصد النهوض به : ظلت اللغة العربية موؤودة والصناعة والتجارة كاسدة والفلاحة بوسائلها العتيقة فى انحدار الى أن عم الموت وحل الجمود فشل كل القطاعات وبقي المجتمع فى فلك الاستعمار « يعطيه بعض العلف ليستمر فى خدمته » فتولد شعب خامل قابل للاستعباد كما ستبين لنا الخواطر عدد 41 ص 66 .

نحن شعب ما زال في انتاجه على الفطرة ولكنا نستهلك بما بقي من تراث الجدود أضعاف ما ننتج لان حياتنا الجديدة التي وقعنا فيها وقوعا قد استعبدتنا ، والآن قل مالنا وعجزنا عن الاستهلاك الذي الفناه حتى استعبدنا ولكننا لم نفكر في رسم خطة لتحسين الانتاج وتوسيع موارده عسانا نعوض ما ذهب من تراثنا ونقدر على الاستهلاك لترقية حياتنا دون أن نخسر من تراثنا الا ما يزيده نموا بجهودنا المتضافرة ، نعم ان الحركات السلبية هي التي تنقذنا لو أننا نحسن القيام عليها ولكن هذا التوفير لا يفيدنا شيئا ان لم نضع له رسم بناء تقوم عليه حياتنا . والهدم لا ينفع إن لم يكن للبناء لان أهل التصوف هم الذين يهدمون الحياة لانتظار الموت في غيبوبة عن الحس .

في هذه الفقرة من الخواطر نرى تركيز الحداد على ظاهرة طغيان الاستهلاك على الانتاج وهذا ما أدى بالمجتمع : الى الانهيار وهي ظاهرة سلبية كان بامكان القائمين على شؤون البلاد اذا كانت نواياهم صادقة وعزائمهم صلبة استغلال الانهيار الاقتصادي للبناء بوضع خطة محكمة ومخطط سليم ينقذ الامة من الوضع الذي تردت فيه، وفكرة التخطيط التي وردت في الخواطر ليست غريبة عن الحداد وهو الذي ساهم مع محمد علي الحامي في ارساء التعاونيات الاقتصادية والنقابات التونسية .

وباسلوب آخر وبطريقة كتابية أخرى يكشف الحداد عن واقع شعبه في الابيات التالية :

ينتج الغير كل رزق ويشري ... في ثرانا ونحن كالاشباح
نحن نحيا بلا ضمير ولا ما ... ل وحرمة ولا آمال
غير خبز يلين من جوع بطن ... وكساء يخفي افتضاح الحال
... أنت يا شعب مالك اليوم خل ... غير غاو أو جائع محتال
يرصد العيش عاجزا عنه الا ... من طريق المخادع الدجال
لعن الله خبزنا فلكم عاد ... علينا بالذل والاتكال

نلاحظ في الخواطر والابيات تطابق نظرة الحداد في شكلين مختلفين من الكتابة والنظر تتمثل في الكشف عن السبب والمسبب الذي أدى بالوطن الى حالة الوهن والشلل الاجتماعي والثقافي الذي انعكس على الحالة الاقتصادية فمهد لدخول الاستعمار وسهل مهمة بقائه : وتمرير بضاعته لمجتمع استهلاكي مستعبد .

(يتبع)

رمضان لطفي

نشيد العيدين

شعر : د. الهادي حموده الغزي

قالوا : المنستير العروس ، منارُ   قلنا : نعم . وحبيبنا استبشارُ
ومحمّد والعيد معلم فكره   يافكر أنتِ الكون والاسرار
إنّ الثلاثين الكواكب نُظِّمتْ   ليست شموعا ليلها موّار
ومجالسنّا شبقيةّ سمّارُهُا   قيدُ الستائر والفراش حوارُ
قسما بفكرك إنّها حرب الموا   قع معمع وزعازع وأوَارُ
ولئن نُصِرت فإنّ ربك ناظر   للشعب تسعى والسّرى إعْمَارُ
واذا السّباق تتابعت غلواته   فكفاك تونس أنك المضمار

* * *

الصّبح ينفس والمصيف يغار   والبحر عطر ، والنّسيم بهار
والموج في حلم المساء صبابة   والرمل ساج والهوى أطوار
وعلى الرمال من المباهج فتنة   قزحيّة سجدت لها الأقمار
وعلى تقاسيم النهود ترنّحت   ربات عبقر تنتشي وتغار
والحبُّ فيض الحي في حي الطرا   باسية الإجلال والإكبار
والعائدون مع الغروب وفتية   ملء العيون ، وصبية أطهار
لا ، لا يهون صغيرهم وكبيرهم   لصغيرهم وكبيرهم أمّار
وغريبهم وضعيفهم وشفيعهم   كلّ لكلّ حرمة وجوار
يتباشرون بعيد ميلاد الذي   بمضائه شهدت له الأخطار

وعلى المستنير السماء تنمنمت   وبها الشواطىءُ معصم وسوار
ما ظنّها البابات الا مــرفــأ   وهي العرين وأهلها الأحــرار
ومدارج التاريخ عند رباطها   ما شاء هرثمة وآملكـار
ورسائل حَنْبَعْل حمّلها فما   أبطا ولكن قلّت الأنصـار
ذهبت بـه قدمـا يمينٌ بـَرة   فطوى البسـاط وجرّه التيار
وأرادها قرطاجةٌ رحب الفضا   فمضى ولكن عجّلت أقدار
وكأن عين الغيب ثم مطلة   من طارق وحبيبه ثأْآر
حفظ اليمين فبرّهـا ولتونس   كالليث من دون الحمى زأْآر
يا قرطاجنّ أما لديك رسالة ؟   هلاّ قضيت وعندك الأســرار ؟
طالت شقاوتنا وبرّح جرحنا   والجرح من أجل الحمى نغّار
فإلى متى لا يستقر بنا الهوى ؟   والليل موت ما به إقمار
هل في ربوعك يا بلادي مربض ؟   حتّى نرود ويعذبَ الإبحار
قل للذين على الشكاة تراهنوا   شكواكم عرض المحيط بخار
وإلى الذي أشقى عليسة بالهوى   شكواك تيسٌ عاثرٌ ومُعار
كذبا دعوت مناديا ومولولا   هلاّ نظرت وخلفك الأعيار
هبلتك ترتضع الخوالف مَذْقها   مرّ المذاق وشربها غيّـار
لا يحسن التحليق الا في الذّرى   ومن الجبانة عيشكم والعار
نحن الذين من الشمال عرفتهم   ما فيهم أشِرٌ ولا خوّار
هلاّ كرُمتَ وثرت غير مذمم   وطن لديك حدوده تنهار
يا قادما من موطن أعجِب به   تلوى الرقاب وينحر النحّار !
وأرى بداخله فهل لك أن ترى   هولا به قد زاغت الأبصار ؟
ودموع أفلاذ يتامى رضع   ولحومهم ودمائهم أنهار
من غرّه ضوء النهار تخيّلا   فمع الظلام يجرّه الجزّار
وفعلتمُ بالـلاجئين وأرضهم   ما لا يجيز (هُلاك) والتاتار

ماذا نقول عن اليهود ازاءكم ؟ رسل إذن ! وملائك أطهار
نصّبتم اسرائيل ثم عشقتمُ والعشق فيه لعنة ، والنار
يا ويحنا ! وعوالم من حولنا ودماؤنا يجتاحها الإهدار
هذي فلسطين الشهيدة أنجبت فقبرتم الانجاب يا أجوار
وجعلتموها (فِلْسَ طين) شعبها نزحتموه أيعقل استهتار !
من قام يهتف للعروبة باسمها ويُدلّ فينا أنّه المختار
إنّ الذين تنمّروا وتفرعنوا فعلى رؤوسهمُ البنا ينهار
أوَ كلّما اسرائيل سلْبا جمّعت تتسارعون وكلكم إصرار
للاّجئين تدمرون وجودهم يا قوم توبوا فوقكم قهّار
يا أيها الحطّاب تونس لم تزل عين الوفا وزعيمها إقرار
تاب الزمان وأنت غير متوّب فمتى الرجوع وماؤكم غوّار ؟
أوصاكمُ لكنّكم عاندتمُ وأعيذكم هل أنتمُ أشرار ؟
ولكم دعاكم غيرة ونصيحة ! وأريحَ نحكم ، والقضاء خيار
في مصر وعاكم فلم تتبصّروا وأذعتمُ ، ومذيعكم مهذار
جمل من الصحراء شقّق خفّه طول السرى ، وسرابكم مضمار
لم يأل جهدا رهطكم وقبيلكم ماذا نقول ؟ أأنتم كفّار ؟
هل زغتمُ ؟ ما في الجهاد تورّكٌ نذر الحبيب ونذره إنذار ؟
هلاّ فعلتمُ في الكفاح كفعله ؟ فسلوا الجزائر عندها الأخبار
تلقاك ساقية الجهاد جريحة لكن إليها بالبنان يشار
ضرب الوفاء التونسيُّ قبابه بسمائها فتباشر الأحرار
ما مثلها إذ مثلوا غير التي قد برزت من حولها الأقمار
هذي المنستير الممرّد صرحها شمم على شمم عَلاً وفخار
شهدت على التاريخ وهو مقنّع حذر فلبّى الساحلُ الجبار
في سرّها من سرّه وعلى ربا هُ من رباها سدرة ، والغار

سلمت ربوعك يا بلادا لم تزلْ ... تعنو لها وتسبح الأسوار
من نحو خضرتك البطاح تنضّرت ... وعلى الضفاف تناغت الأطيار
وعلى رياضك بكرة وعشية ... تتنفس الآصال والأسحار
هذا حبيب شب في أحضانها ... ما بال دمع الساحلي مدرار؟
أولى به أن ينتشي ما باله ... زرُّوقُ راح وراحت الأكدار ؟
إن كنت لا تدرين فجرا طالعا ... فلقد بكرت وجدّ بي التسيار
فاليوم يا أيام ليل لم يعد ... ولـ الحبيب وشعّت الأنوار
واذا بها البايات أوثانٌ ، دمى ... وعريفهم لا تعجبوا مزوار
ولئن بتونس بدّلوا أو غيّروا ... فسبيلهم « رومـان » أو « تاتار »
واذا الأمور على الرجال توعرت ... فلكم صفت وتسهلت أوعار !
بالعاملين المؤمنين جهادة ... والصابرين على المدى ثوّار
أسِيَ الشمال على الجنوب تعطفا ... فمتى الرّحيل وركبنا سيّار؟
من دون مغربنا الأشمّ تولّه ... وبعدوتيه الشدّ والإمرار
ولكم تلاعبت الزّعامة والهوى ... لا نخوة ، كلاّ ، ولا أبصار !
هم للدخيل وللحماية ركع ... والشعب في إقباله إدبار
والباي من دون المسيرة جاثم ... ركب غبيٌ قَادَهُ سمسار
والمغرب العربيُّ ليث سادر ... يرتاد في عرصاته الغدّار
وفرنسَ تحلم أنّنا أرجوحة ... لا تستقرّ وحظنا الأدوار
والغرب تياهٌ يجرّ ذيوله ... والشرق حِلس دَيْره والدّار
يلهو بنا ويشدّنا ويصدّنا ... نشوانَ ليل جرّه خمّار
حتّى اذا جدّ الكفاح وأظلمت ... أيام تونس ، قلبها والنار
ظهر الحبيب موسما ومعلّما ... شعب يصول وقائد مغوار
وسياسة الترغيب والترهيب مذ ... سطّرتها يودى بها استعمار
فتعلّ من مضض الكفاح كريهة ... فتمجّه ، ويحطها الإضمار

وتمنّعت وتطلّعت فتطوّعت ... واذا بتونس حرّة تختار
حرّية ، وعدالة ، وكرامة ... والبرقيّة خطة ومسار
واذا بتونس جنّة موعودة ... تجري لها من تحتها الأنهار
موسومة ، مختومة برياضها ... السحر الحلال وذكرها معطار
ومن السياسة أن تكون مكمّلا ... من لم يسس لم يجده التسيار
يا أيها العلم المنصب في الذرى ... صدق الحبيب وصرّحت أخبار
ما كان أحمد مذهبيا ، داعيا ... هل سنّة وتشيع وضرار
انّ الذين تحيّفوا أو صنّفوا ... في دينه مهما ادّعوا فجّار
يستقسمون ويقسمون ديانة ... يا مصطفى اسلامُنا قد ضاروا
يتواطؤون ويجهدون نفوسهم ... وكأنّهم بـدّ العمى أجبار
ما كنتّ الا بالكتاب مصدّقا ... وحديثكم هل سنّة وبوار !
خلطوا علينا ديننا وعقولنا ... واليوم نحن .. أهكذا أغرار ؟
قل للذين على المذاهب فتنوا ... ما بالنا يا ربّ والأوزار ؟
ان كان غيرك يا حبيب مدمرا ... فبكم حبيبُ جدّدت أعمار
هزّتك ذكرى الوالدين حميّة ... والحرّ من أجل الحمى ضرّار
فأكبّ في طلب العلى متأزرا ... العلم والإقدام والإبـرا
أو تذكرنّ نصائحا من والد ... منذ الصبا ، ووصيه صبّار
أسدى إليك وأنت يمن طالع ... فطفقت لا يلوي بك الإعصار
حتّى ظفرت وكنت خير مظفّر ... لا تستزلّ برأيك الأحرار
وتطلّع الزّمن المدلّه سائلا ... برح الخفا هذا الحبيب نضار
الشعب شعب والكفاح شهامة ... والثائرون تشدّهم أوطار
والرأي رأي « والأصالة » مقصد ... « الفكر » فكر يعربي جبّار
لو يعلم الأحرار أن حبيبنا ... قدر تنزّل ما انتحوا أو حاروا
فرع نماه للفواطم نبعه ... علوي النجار ويعربي نصّار

لا ، لا يرعنا أنّ موجا قد طمى ... هذا الحبيب وما نشاء بحار
من فيض نور تونس جادت به ... كسنا البروق به عشتْ أبصار
هذي بلادي والبطاح شواهد ... بكّرت بنجحك تلهج الأقطار
ما بعد الا ما نشاء ونرتجي ... والعاملان : العزم والإصرار
واليوم تونس فاتح أكرم بها ... من فاتح تجلى بها الأكدار
أوت يبوح وفي المدى أكتوبر ... منه الهوى والنور والأنوار
فاهنأْ وحولك من بنيك أهلّة ... (فكر) أغر ، وقائم نظّار
من صلب مدرسة الحبيب تأصلا ... خرّجتهم فتبوّأوا وأداروا
أودعتهم سرّ الكفاح وصدقه ... منك الرّضاء ، ومنهم الإبرار
حلُمت بكَ الأعزاز في تهيامها ... فإذا الحبيب وحبّه المعيار
أنا لست من عشق الكفاح تكلفا ... أنا برقبي آباؤه الثوار
لله والوطن الحبيب توجهي ... أحيا الوفاء وأفتدي وأغار
وأبي ، أنا ما كنت إلاّ نبعة ... منكم ومنهم والكفاح مسار
ما بدّلوا في حبّهم أو غيّروا ... أو فرّطوا أو (غرنطوا) أو حاروا
بالأمس نحن وما نزال كأمسنا ... واليوم نحن ، على المدى أبرار
درجوا على حبّ الحبيب تعهّدا ... والعهد صدق والولاء قرار
جاءوك من « وطن » تأثل حبّه ... « قبلي » الرؤى وجماله أسّار
من نحو ساحلك الجميل توهّجا ... كالحبّ تكشف سرّه الآزهار
يستبشرون وينشدون حبيبهم ... والحب عمق بحره زخّار
جهدوا بجهدك والشهامة نخوة ... العيد ، والميلاد ، والأذكار

د. الهادي حموده الغزي

عيسى الناعوري صديق آخر يرحل

بقلم: عيسى فتوح
(دمشق)

يوم الجمعة فى 1985/10/4 غيب الموت الصديق الدكتور عيسى الناعورى ، أمين عام مجمع اللغة العربية الاردنى ، وهو فى تونس للمشاركة فى ندوة أقامتها مجلة «الفكر» ، ويوم الثلاثاء فى 1985/10/8 نقل جثمانه الى عمان ، ودفن فى احتفال كبير ... وقد أرسل أصدقاؤه الكثيرون المنتشرون فى كل مكان عشرات البرقيات معزين بوفاته المفاجئة اثر نوبة قلبية ، وبعضهم حضر شخصيا لوداع هذا الاديب الكبير الذى ترك موته ـ وهو فى قمة العطاء وأوج النشاط ـ حسرة لا تنطفىء ، ولوعة لا يخمد لها أوار ، لما كان يتمتع به من مودة صادقة ، ومحبة صافية ، وسريرة نقية ، وخلال كريمة ، وتفان فى خدمة الآخرين ...

لا أذكر التاريخ الدقيق الذى بدأت فيه صداقتى للدكتور الناعورى ، ولكنها على أرجح الظنون بدأت فى السبعينات بالمراسلة ، ثم توثقت باللقاءات المتكررة فى كل من عمان ودمشق ، دمشق التى كان يحبها حبا ولا أصدق ، وكان لها فى نفسه منزلة خاصة ، لانها تحتضن طائفة من ذكرياته الحميمة على ضفاف بردى وفى دمر ، مع نخبة من أدبائها وشعرائها ، منذ مؤتمر الادباء العرب الثانى فى بلودان عام 1956 ، أذكر منهم على سبيل المثال : مدحة عكاش ، سعد صائب ، عزيزة هارون ، فاضل السباعى ، الياس سعد غالى ، يوسف عبد الاحد ، ميخائيل بلدى ، ميخائيل عيد ، د. عبد السلام العجيلى ، د. عدنان الخطيب ، د. شاكر الفحام ، حسان الكاتب ، عدنان مردم بك ، مهاة فرح الخورى ، كوليت خورى ، ألفة الادلبى ، وجيه الخورى ، عبد الله بوركى حلاق ، سلمى الحفار الكزبرى ، علي عقله عرسان ...

كنت أتلقى منه رسالة كل أسبوع تقريبا ، وكنت أشعر أنني لا أستطيع اللحاق به في سرعة الرد ، فأية رسالة تصله مني ، أو من سواي ، لا يتأخر في الاجابة عنها أكثر من ثلاثة أيام ، ولذلك بلغت رسائله الى حوالي مئتي رسالة ، علما بأنني واحد من عشرات الاصدقاء الذين يراسلهم في الشرق والغـرب .

كان ـ رحمه الله ـ عدة رجال في رجل واحد ، يكتب ويقرأ ويؤلف ويترجم ويسافر ويحاضر ويشترك في المؤتمرات والندوات والاجتماعات الادبيـة ، ويخوض المعارك الادبية منفردا بجرأة بالغة ، يصل ليله بنهاره ونهاره بليله ، ولا يستسلم للراحة اطلاقا ، كأنه كان يريد أن يختصر الزمن ، ويقول كل ما عنده للناس ، قبل أن يشهر الموت سيفه عليه ، حتى بلغت كتبه المؤلفة والمترجمة من شعر ورواية وقصة قصيرة ومقالة ونقد أدبي ودراسة وسيرة ذاتية وأب أطفال سبعة وخمسين كتابا ، ورغم أنه أصيب بنوبة قلبيـة من قبل ، وأجريت له جراحة في القلب ، فانه ظل يتابع مسيرته ، ويـواصل عطاءه الادبي والفكري بلا انقطاع ، وظل يصعد السلالم ، ويركب السيارات والطائرات ، غير مبال بما يتهدده من أخطار ، حتى توقف قلبه الكبير عـن الخفقان ، قبل أن يتجاوز السابعة والستين .

كانت أعمال مجمع اللغة العربية الاردني تقع كلها على عاتقه ، ومع ذلـك يؤديها باخلاص وينهض بأعبائها الثقيلة دون تذمر ، ولا سيما حيـن يعقـد المجمع دورته في ايلول من كل عام ، كما يتابع شؤون مجلة المجمع ، وينظر في موضوعاتها ويصححها .. ثم يعمد بعد ذلك الى السفـر خارج الاردن ، لا ليرتاح وينعم بجمالات الدنيا ، بل ليتصل بالادبـاء ، ويكتب عن رحـلاته وجولاته ولقاءاته الادبية ، وهذا ما فعله في رحلاته الى كل من : اسبانيـا ، وايطاليا ، وبلغاريا ، وأميركا ، والاتحاد السوفياتي ، والهنـد ، والمجـر ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وبانكوك وباقي دول الشرق الاقصى ...

كان كلما زار بلدا بعث لي بالبطاقات الجميلة ، وراح يحدثني باختصار عن مشاهداته وعن الاشياء الغريبة التي لفتت انتباهه ، وأثارت اعجابه ، وقد أغنت هذه الرحلات المتعددة ـ وكان مغرما بالسفر الى حد بعيد ـ كتاباته ، وأمدته بفيض من الانطباعات والمعلومات والذكريات . كان جواب آفاق ، لا يقر له قرار ، كأنه كان يدرك في قرارة نفسه أن الحياة قصيرة ، وأنه اذا لم يسابق الزمن سبقه ، وطواه الموت قبل أن يقول كلمته ، ويبوح بمكنوناته،

ويفضى بكل ما تزخر به نفسه من أشياء مكنوزة ... كان يعتقد أن الانسان يجب أن يعيش مئة عام على الاقل ليستطيع أن يعطى على أكمل وجه .

لقد مات الدكتور الناعورى وفى نفسه أشياء لم يقلها ، وكلمات لم يسطرها ، وأفكار لم يعبر عنها ... مات بعد أن رفد المكتبة العربية بسبعة وخمسين كتابا مطبوعا ، أما الآثار المخطوطة والمذكرات والرسائل والمقالات التى لم يتح له أن يجمعها ، فلا أبالغ اذا قلت : إنها تعادل ما طبع ، ان لم تفقه كمية .

يكفيه عطاء أنه ألف كتاب « أدب المهجر » الذى قررت تدريسه معظم الجامعات فى الوطن العربى ، وطبع فى دار المعارف بمصر أربع طبعات منذ عام 1959 ، وبعد هذا الكتاب الضخم موسوعة أدبية وافية لا نظير لها الا موسوعة « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الاميركية » للشاعر المرحوم جورج صيدح ، ولعله فاق صيدحا فى التوسع والشمول والاسهاب فى دراسة نتاج أدباء المهجر دراسة مستفيضة .

يكفيه عطاء أنه نقل الينا روائع الادب الايطالى الذى كان مجهولا بالنسبة للقارىء العربى فلولاه لما عرفنا جوزيبى أونغاريتى ، وأوجينو مونتالى ، وسلفاتوره كوازيمودو ، ودييغو فاليرى ، وأومبرتو سابا ، وايلزا مورانته ، وغيرهم من الشعراء ... ولا جوزاف فانشولى ونيللو سايتو ، والبرتومورافيا ولويجى بيرانديللو وغيرهم - وكانت تربطه بمعظمهم صداقات شخصية - ولا عرفنا رواية « الفهد » لجوزيبى تومازى لامبيدوزا ، ورواية « الرجال والرفض » لايليو فيتورينى ، ورواية « فونتمارا » لسيلونه ، ولذلك قال فيه المستعرب الايطالى فرنشيسكو غبرييلى : « انه من أعظم المشتغلين بالثقافة الايطالية بين العرب اليوم ، ومن أقدر مترجمى الشعر والنثر الايطاليين المعاصرين : من فيرغا الى لامبيدوزا وكوازيمودو » .

لم يتوقف الناعورى عند الترجمة عن الايطالية ، بل ترجم عن الانكليزية أيضا ، وكانت هاتان اللغتان نافذتيه اللتين أطل منهما على الكثير من آداب الشعوب ، فكتب عن : ايليوت ، وديكنز ، وأوسكار وايلد ، وسمرست موم ، واندريه جيد ، وبودلير ، وديستويفسكى ، ونيرودا ، وجول رومان ، وشاندور بيتوفى ، وغاراى غابور ، وميكلوش ردنوشى ... وغيرهم

لقد أتاح له اتقانه اللغتين الايطالية ـ التى درسها صغيرا فى دير الملاتين ـ والانكليزية ـ التى درسها على نفسه ـ أن يكثر من الترجمة ، ويبحر فيها شرقا وغربا ، وساعده فى ذلك قلم سيال ، ودأب متواصل ، وسرعة خاطر ، ولغة مطواع ، وموهبة فطرية ، فكأنه ولد ليكون أديبا ، ناهيك عن رهافة الاحساس ، وسلامة الذوق ، والقدرة الفائقة على التمييز والنقد والحكم .

كان جريئا فى قول كلمته ، وطنيا فى عقيدته ، لا يحابى ، ولا يداهن ، ولا يرائى . يتعصب لما يحب أو يكره الى حد الصلابة . يعجب بنزار قبانى ويدافع عن هذا الاعجاب بحرارة واصرار ، لانه ـ فى رأيه ـ صريح فى التعبير عن تجاربه وأحاسيسه ، صادق مع نفسه ، واضح فى كل ما يقول ، ويكره المذاهب الشعرية الجديدة عن أدبنا كالسيريالية ، والرمزية ، والدادية التى زادت شعرنا تعقيدا ، وألقت به فى غياهب التعمية والابهام .

عيسى فتوح

ننشر فى الاعداد القادمة القصائد التالية

مذكرة الوجع البكر .... **هشام المحمدى**
معارضة «قصيدة الباتروس» لبودلار ...... **محمد بن صابر**
هو الفتى .. يواعد الصباح .. .. **عبد الله م. القاسمى**
قصائد الى الضفة الاخرى .... **أحمد صنديد**
أبـواب تـونس .... **الحبيب الهمامى**
محاولة أخيرة للبحث عن قرطبة .... **ناصر العيارى**

أعلنت عليك الفرح

شعر: سمير الخياري

بعينيك لوحةُ حزنٍ
ومن شفتيك انبعاثُ الأسى
وهذا الشحوب لماذا ؟
لأني أطلت الغيابْ ! ؟
ألا فاغفري للمسيء
فما كنت أدري
بأنّ ابتعادي
سيلبسُكِ كلّ هذا العذابْ
وما كنت أدري بأن فراغ حياتك منّي
سيفقدها بارقات الشبابْ
ألا فاغفري ... ابتسمي
هكذا أي نعم ! هكذا
احتفلي ... اغتسلي
بمياه حضوري
فإني أحبّكِ وردهْ ...
تضيء ... تفيض عطورا
ولا .. لا تخاف الخريفْ
أريدك لحن الفرحْ ...

يجيء مع الفجر حين الشحارير تطلع
من فجوات الأسى لتغني
أريدكِ صبحيَ .. أمني .. وفني ..
أريدكِ كلّ حقول الرّجاء التي أينعتْ
في صحاري احتضاري ..
انتظاري
لقاحا أريدُك .. تحمله الريحُ دَوْما
ليخضرّ غصن انكساري
ألا فاغفري ... ليس قصدي عذابُكْ
وعمري يهونُ ولا .. لن يهون شبابُك !
شباب الفرحْ ...
كان خيطا
أتى بي إليكِ
لأني رأيت الطفولة تضحك في شفتيك
وفي وجنتيكِ
وفي كلّ شيء تجسم فيكِ
وفي هذه النّظرات التي قتلتني
ألا فارحميني ..
فإني المعذّبُ وحدي بحبّي !
ولا .. لا أريد انتقال عذابي إليكِ
أيا شمعة أوغلت في غياهب دربي

سمير الحياري

عاشق العاصفة

قصة : الهادي عمران

وقف بين القبة الخضراء وسد الرمال ، ثم خطا خطوتين ، وجثا على ركبتيه ، موجها قدميه الى خلف ، منكمشا على ذاته كجذع شجرة هرمة ، واضعا يديه فى حجره ، وقد تشابكت أصابعه ، أدار ابهاميه حول بعضهما فى حركة متواصلة ، مثبتا عينيه فى حبات الرمل البيضاء المشعة ، جذب طرف الكوفية على وجهه حتى لم تعد ترى منه إلا عينيه ،

عيناه التائهتان فى المصير المجهول ، المشدودتان الى بحر لا حد له ، أمواجه كثبان من الرمال منتصبة أمامه ، خلفه ، حذوه ، تحيط به من كل جانب ، رائعة مخيفة ، تتربص به ، مد يديه الى الامام حتى استوتا فى شكل خطين متوازيين ، وقد أحنى ظهره قليلا ، فساخت قدماه فى الرمال وكلما تحرك ازداد قصرا حتى كاد ذقنه والرمل يستويان ، ثم أخذ قشة يابسة ، حملتها ريح الجنوب فاستقرت فى حجره ، نظر اليها طويلا ، أدارها بين أصابعه ببطء ، ثم رسم بها أشكالا هندسية غريبة على الرمل ، تأملها طويلا ، ثم حرك شفتيه بكلمات غير مسموعة ، ثم محاها بسرعة ، حرك عجزه الى الامام مستعينا بكفيه على الرمل ، فتقدم قليلا تاركا خلفه خطين غير عميقين من صنع قدميه ، لقد تعبت رجلاه ، حاول أن يجذب اليمنى ، آه لقد تعظمت ، سيجرى فيها الدم بعد قليل ، حرك أصابع رجله ، عبس ، عض شفتيه بأسنانه العليا ، انشرح وجهه لقد أعاد اليها الحياة ، ثم جذب اليسرى حتى استوى متربعا ، مخلفا وراءه خطين متوازيين يقطعان خطوطا منحنية رسمتها الرياح ، وفى حركة عفوية أزاح طرف الكوفية الذى كاد يغطى عينيه ، ثم أدخل يده فى جيب سرواله ، وأخرج علبة السجائر وعلبة الكبريت ، التفت يمينا ، وانكب قليلا الى الامام ، ثم أشعل عود ثقاب وأخذ نفسا عميقا من سجارته ،

وسريعا ما نفث الى فوق دخانا تلاشى بعيدا فى لحظات ، طرح عود الثقاب على الرمل ، تبعه بعينيه ، نظر اليه طويلا ، مسكه من جديد ، أثبته فى الرمل منتصبا ، نقره بظفر اصبعه الوسطى ، وأطاره فى خط أفقى ، أدخل سبابته فى الرمل ، جرها الى الامام ، ثم الى خلف ، ثم الى اليسار ، فالى اليمين ،فالى خلف ، تأمل الخطوط المتداخلة ، التمعت عيناه فجأة ، انها تشبه حدة ؟ حدة فتاة أحلامه ، ما زال يتذكرها ، يتذكر الصدفة التى جمعته بها أول مرة ، لقد كان يومها يوم حزن بالنسبة لقريته الضاربة فى قلب الصحراء ، ففى كل بيت صياح ، وفى كل زقاق مأتم ، الا بالنسبة له وحده فقد كان يومها يمثل لديه أجمل ذكرى !!

لقد قام يومها على غير عادته ، قام على صياح العجائز ، وصراخ الاطفال ، وتناهى الى سمعه صوت عجوز تصيح وتستغيث ، وكأن صوتها آت من قعر بئر ، ما زال يتذكر كيف أخذ رفشه وزنبيله الصغير وأسرع اليها ، لقد حاصرت الرمال بيتها ليلا ، وتكدست حولها من كل جانب ولم يعد يظهر من جدرانها ومن بابها الا جزء يسير جدا من أعلى ، لقد كانت العجوز المسكينة تصرخ من الداخل ، تقرع الباب يائسة من الحياة ، وسمع الشيخ أحمد صوتها يخفت شيئا فشيئا ، وضرباتها على الباب تضعف كلما تقدم بها الحصار أكثر ، وأحس أحمد بما كانت تحس به المسكينة من أسى وحزن وهو يستمع لندائاتها المتقطعة وهى تأتيه من الداخل حزينة بطيئة ، فانبرى لازاحة الرمل ، وفى حركة نشيطة كنت تراه برفشه يبعد آلاف الاطنان من الرمل ، يجرفها بعيدا أو يحملها على ظهره بزنبيله الصغير ،

وفى بطولة نادرة أزاح اكداس الرمل المحيطة ببيت العجوز ، وقد غسل العرق جسمه حتى سال خيوطا من شعر لحيته الكثة ، وأصبح بعينيه وشعره وجسمه فى لون الرمال ،

وفتح الباب قليلا فأطلت من فجوته امرأة مقطعة الشعر ، حمراء الخدين من أثر الندب ، لا تقوى على الوقوف لكثرة ما قرعت الباب ، ولا على الكلام لفرط ما صرخت ، وأسرع أحمد يزيل ما تبقى من الرمل غير عابىء بما حل به من تعب ، ولا بما تعلق به من حبات الرمل ، وانفرج الباب على مصراعيه على فتاة فى لون التمرة ، وقد تهدل شعرها الفاحم ، وأطل من تحته وجه كالبدر ، تاه أحمد فيه ، وأبحر فى عينيه بعيدا ، وابتسمت له عن أسنان كاللجين وكأنها تشكره ، وسريعا ما تذكرت أمها فأسرعت الى الداخل لتطمئن عليها..

* * *

انتفض أحمد مذعورا ، واستفاق من أحلامه العذبة على نار عقب السجارة وهى تلسع سبابته واصبعه الوسطى ، فطرحها شاتما ، وعاد ينظر الى عود الثقاب والى القشة اليابسة والى الخطوط المتداخلة أمامه ، وسرح فى ماضيه بحلوه ومره ، يستعرض شريطا طويلا من حياته .

إيه يا أحمد !! أنت كعود الثقاب تماما ! كنت فى الماضى أخضر ، حيا ، تزهر ، وتثمر ، ثم استحلت فجأة الى عود جاف لا يزهر ولا يثمر ! بل أنت كهذه الخطوط المتداخلة أمامك ، انها حية ناطقة ما دامت ثابتة على الرمل ، فاذا انمحت صارت فى طى العدم ...

ورفع رأسه قليلا ، ثم زفر زفرات عميقة وقال : « إنى ما زلت أذكر يا حدة يوم حوصرت القرية بالرمال ! ما زلت أذكر كيف أتلفت الرمال ليلتها قسما كبيرا من أغراسنا ومنازلنا !! وما زلت أذكر يا حدة أن والدى قال لى يوما : إن الرمال التهمت قرية كاملة فى رمشة عين !! فهل أنت تذكرين شيئا عن ذلك اليوم ؟ فكيف كان منظرى لما قابلتنى لاول مرة ؟ أما أنا فانى لم أنم ليلتها ، تمنيت لو تثور العاصفة وتحاصرك الرمال ثانية حتى أملأ عينى منك ! ما زلت أذكر يوم أن تقدم والدى رحمه الله من والدتك لخطبتك لى ، كنت لحظتها خارجا أحملك نغما فى قلبى ، أحلاما وردية فى خاطرى ، وأنا أشعل السجارة تلو السجارة أترقب القبول والاجابة منك ، ولكن فوجئت يومها بشرطك علي ، وكأنك كنت تحاولين تعجيزى حتى أتخلى عنك ولا تكونين لى ، والا فكيف تشترطين علي إقامة سد حول القرية كلها لحمايتها من زحف الرمال مقابل مهرك ؟ وتصورت أننى سأفشل ! وخيل اليك أننى سأمانع ولا أقبل شرطك ! وأنك سوف تنتصرين علي !! وما دريت أن الحب يخلق المعجزات !

ورأيت أبى يعود من منزل أسرتك حزينا لا يقوى على الكلام ، وكدت أموت جزعا ، لقد حسبت أنك كنت مخطوبة لغيرى ، وكم كانت فرحتى لما علمت من أبي بشرطك علي حتى تقبليني زوجا لك ، وأذكر أنه قال وقتها فى لهجة اليائس : « لا فائدة يا بني ، لقد رفضتك الفتاة مشترطة مهرا صعب التحقيق ، إنها تطلب منك صيانة القرية كلها من زحف الرمال ! » وصحت وأنا أكاد أجن من الفرح : « أرفع الرمال عن القرية ! نعم يا أبي سأبني حولها سورا شرفاته فى السماء .. » ووقف أبى متعجبا حائرا فى أمرى : « أجننت يا بني ! » فصحت : « لا ! لا ! لم أجن يا أبي ، سأثبت لها أن حبى أقوى من زحف الرمال ومن العواصف الهوج ... »

وضحك منى شبان القرية وسخروا وانا أعمل بكل ما أوتيت من قوة على دفع الرمال بعيدا عن القرية ، ثم جلبت من مسافات بعيدة أعشابا وأشجارا وقصبا ، غرست كل ذلك حولها وسقيته ماء كثيرا من الترعة ، حتى أصبحت القرية كجزيرة وسط حزام من المروج الخضراء ، وكخصر عروس هيفاء محاط بشال حريرى أخضر ، ونما العشب والشيح والعرعار والزعتر والاكليل والترفاء والقصب ، وفاحت القرية ، وهبت العواصف ، وظهرت أكداس وأكداس من الرمال كالجبال ، ولكنها فى هذه المرة لم تصل قرية حبيبتى ، بل وقفت الاشجار والاعشاب الخضراء تحرسها ،

واستطاع أحمد تحقيق ما لم تحققه القرية طيلة قرون ، وقبلته حبيبته حدة عريسا لها ،

وأصبح فى نظر الساخرين ٠٠ الضاحكين منه من أبناء قريته بطلا عملاقا يستحق حدة وأكثر !! وفرحت القرية واستعدت للزواج الميمون ، وقرب موعد الزفاف ٠٠٠

كان أحمد يترقب موعد الزفاف لحظة بلحظة ، وفجأة أتاه نعيها !! لقد سقطت عليها صاعقة وهى تخيط ثوب الزفاف ، وصعق أحمد لموتها وكاد يجن ، ومن لحظتها اوقف حياته كلها على صيانة السد الذى اقامه حول القرية لحمايتها من زحف الرمال ، ومن يومها أصبح يتعشق الزوابع والعواصف ، فكلما اشتدت عاصفة ، وثارت رمال سمعته يصرخ : « حدة ! حدة ! إنى هنا لا تخافى ! انتظرى ! ها أنا آت ... »

وأصبح أحمد من لحظتها حبيب الكبار والصغار فى القرية ، لا يذكر اسمه الا مقرونا باسم حدة ، وأصبحت حدة فى نظر الناس مصدر الخير والعطاء ورمز السلام والحب ...

وبكتها القرية بكاء مرا واقيمت على قبرها قبة خضراء فى لون الاعشاب التى غرسها حبيبها أحمد لحماية القرية من زحف الرمال ،

وأصبح الشيخ أحمد من يومها لا يرى الا وهو يشبع مغروساته ماء من الترعة ، أو واقفا بين القبة الخضراء وسد الرمال المزدان بالاكليل والزعتر والشيح والعرعار والقصب ٠ أو منكمشا على ذاته كجذع شجرة هرمة بجانب القبة الخضراء منصتا الى نداءات آتية اليه من بعيد : « احرس القرية من زحف الرمال يا أحمد حتى لا تحاصر من جديد !! »

1985/8/10
الهادي عمران

ذكريات عن علاقة عيسى الناعوري بتونس وأهلها

بقلم : محمد الصادق عبد اللطيف

تشهد الساحة الادبية تساقط العديد من الادباء الاعلام ، ويكون لرحيلهم وقع شديد يعقبه بحث وتعليق واستقصاء للعلاقات الانسانية التى كونهـا الاديب ودونها فى رصيده الفكرى على صعيد العالم الذى ينتسب اليه ، ومن الوجوه العربية اللامعة فى دنيا الفكر المرحوم الدكتـور الصـديق (عيسى الناعورى) الذى كانت نهايته الحياتية فى تونس ـ أتاها عاشقا ، محبا لها ولأهلها ـ ليساهم فى ثلاثية الفكر ، وكان قد نشر له فيها بحث عن أبى القاسم الشابى ـ نوفمبر 1984 . هذا الرجل ياتى لتونس ـ وقد سبقه مقال طريف نشر بجريدة « الدستور » الاردنية 85/4 ونقلته « الفكر » 1985/6 ـ للمرة الرابعة يوم 85/10/2 وعلى العادة يهتف لى لنلتقى ونحتفل معا بـ « الفكر » ، وكان يود زيارة مدينتى قليبية بعد أداء الواجب الادبى نحو « الفكر » ، وصاحبها رجل الفكر صديقه الاستاذ محمد مزالى ونحو تونس بصفة أعم . ويوم المهرجان أهرع لحضور المجلس الادبى ، ملتهفا للقاء لنجدد العهد ونتطارح القضايا الفكرية التى كانت تعج بها الرسائل بيننا على مدى عشرين سنة ، لكن القدر كان سباقا فاختطفته الموت حيث ينـزل فى نـزل (المشتل) بعد أن غاب عن تونس نصف سنة وكانت نهايته فيها .

لقد نقل لى الاخ الصديق محمد مصمولى ـ ونحن جميعا فى مركز الفن الحي بالبلفدار ـ الخبر المفجع ثم انتشر الخبر عن طريق الاستاذ محمـد الطـالبى وبصفة أشمل عن طريق الاستاذ محمد مزالى صاحب المجلس الادبى .

هذا الرجل ارتبط بصداقات عدة وآخر لقاء أدبى فى تونس كان له معه عن طريق مجلة « الحياة الثقافية » 36 ـ 1985/37 .

- تعرف على الاستاذ المرحوم عثمان الكعاك بالجريد سنة 1966 وتالم لـما أعلمته بوفاته فكتب عنه مقالا بجريدة « الدستور » الاردنية .
- نشر انتاجه الادبى بالفكر وبالبذرة وباللغات وبالاذاعة .

• تعرف على المرحوم محمد الحليوى وهو الذى قدمه لجمهور القيروان سنة 1966 .

• تعرف على الاستاذ محمود المسعدى هنا وفى الاردن حيث زاره وزوجته فى بيته وأكرمهما .

• درس شعر جعفر ماجد ونور الدين صمود ولى منه من رسائله تعاليق على شعرهما .

• اقترحت عليه بأن يعد كتابا عن علاقته بتونس وبأدبائها ، وفعلا استجاب وجعل عنوانه (تونس وليبيا عام 1966) ولكن بسبب الظروف غير العنوان وصار (تونس ما بين عام 66 و 1985) ضم فيه كل ما كتبه عن تونس والشابى والادب التونسى والحركة الفكرية فى تونس وعن مزالى والبشير بن سلامه والمسعدى والسد .

• صلته بالاستاذ البشير بن سلامه رئيس تحرير مجلة « الفكر » أولا ووزير الثقافة ثانيا تسمو الى أعلى مراتب الفكر والود الدائم عن طريق الاهداءات الادبية بينهما .

• هذا الرجل تمتلئ رسائله بعديد القضايا الادبية العربية والانسانية ، ولعل الفرصة تسنح فأجمعها وأرتب منها بعض القضايا التى تهم الاديب الاطلاع عليها ثم أنشرها فى كتاب يكون مدخلا لتحليل فكره وعطائه الادبى وهو الذى تأهل لكى يكون عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية فى الهند وأمينا عاما لمجمع اللغة العربية الاردنى ويحصل على شهائد جامعية فخرية ويرتبط بصداقات عالية مع نخبة من رجال الفكر والاستشراق وبعديد الجامعات على مستوى العالمين العربى والاوربى وتكمن أهمية الرجل الادبية فى جملة ما تركه من بصمات على الساحة الادبية ، وأن مجموع آثاره المشهورة ابتداء من 1951 بين القصة والشعر والدراسة والنقد والرواية والتراجم والسير وأدب الاطفال والترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية والعكس ثم عدة بحوث بالايطالية والانقليزية (جملة كتبه المطبوعة 57 كتابا) ـ اربعة كتب فى الانتظار هى فى المطابع الآن بين تونس والقاهرة والاردن .

الى جانب هذا الاطار الفكرى المتنوع شارك فى ثمانية عشر مؤتمرا وندوة دولية ومهرجانا حسب مساحة زمنية تمتد من سنة 1956 الى 1985 بتونس ،

وقد مكنته هذه القفزة الادبية الى انتزاع القاب علمية عليا والحصول على أوسمة من عدة منتديات سياسية وجامعات علمية تنويها بالكفاءة وتكريما له بما قدمه للفكر الانسانى من انتاج زاخر ، ميز الرجل عن جيله وأهلته مجموع آثاره لان يرتبط بصداقات ويدعى لعديد الجامعات ليساهم فى اثراء النقاش .

لقد تعلقت صلته بالادب التونسي من خلال تعرفه في الساحة الفكرية على أبي القاسم كرو سنة 1951 حين كان طالبا بدار المعلمين العالية في بغداد وقد جاء لزيارة الاردن . ثم مطالعته لما انتجه من كتب ، جانب منها يتعلق بزعيم الادب التونسي الحديث أبي القاسم الشابي ثم التقى بالاستاذ محمد مزالي لاول مرة في مؤتمر الادباء العرب بالكويت سنة 1958 ثم ثانية في المؤتمر الدولي للادب العربي المعاصر في روما سنة 1961 والذي نظمته مجلة (تمبو) ومعهد الشرق الايطالي والمنظمة العالمية لحرية الثقافة في باريس ثم ترشيحه للاساتذة محمد مزالي ومحمود المسعدي وأبي القاسم كرو لعضوية مجمع اللغة العربية الاردني ، وقد تشرفت بنقل هذا الترشيح للاستاذ مزالي وهو في موقع المسؤولية السياسية في رئاسة الوزارة التونسية واضطلاعه بقيادة الفكر عطاء وتخطيطا وانتاجا ، ثم كانت له مراسلات مع الاساتذة محمد النيفر صاحب مجلة « الندوة » والاستاذ الشاذلي زوكار رئيس رابطة القلم الجديد والسفير السابق بالاردن وحاليا في صنعاء باليمن وأحمد بلخوجة صاحب مجلة « اللغات » ثم كاتب هذه السطور حيث تشرفت بلقائه وأجريت معه حديثين نشر الاول بـ « الفكر » مارس 1967 وبـ « بلادي » جانفي 1978 وتواصلت الرسائل بيننا تثرى والتواصل الفكري يتدعم حتى لكأنه يعيش بيننا في خطاب الابداع والخلق (بيته يعج الآن بعديد المطبوعات التونسية من كتب ومجلات ومنشورات تونسية هي حصيلة التحول الفكري في تونس اليوم تشهد توثيق الرابطة بيني وبينه) وهو الاديب المعروف بعمق تحاليله حيث واكب تطور الحركة القلمية قبل وبعد الاستقلال وتمكن من الاطلاع على عدد كبير من الانتاج الذي أبدعه المفكرون التونسيون في شتى ميادين المعرفة ، وكتب العديد من الدراسات النقدية المعمقة بالمجلات الشرقية وآخرها دراسة عن الحركة الادبية في تونس نشرتها مجلة « الأديب » اللبنانية فيفري 1967 عدا بعض الانطباعات الاخرى بالصحف الاردنية التي تولت نقل آرائه ومعالجته المتنوعة لمختلف أوجه الانتاج الادبي في تونس مما أدى بوزارة الثقافة الى دعوته مرة أولى لالقاء سلسلة من المحاضرات بالمدن التونسية الكبرى وأتاحت له الفرصة لعقد جلسات فكرية متنوعة سواء في منزل الشاعر العراقي هلال ناجي القائم بأعمال العراق في تونس أو في منزل الشاعر الكويتي فاضل خلف الملحق الصحفي بسفارة الكويت في تونس . وكانت مناسبة للتبادل الفكري بينه وبين مجموعة متنوعة من الشعراء النقاد والقصاصين في تونس هم الآن يمثلون الطليعة الادبية في الساحة الفكرية في تونس . وقد حضرت جانبا من هذه اللقاءات الهامة وعرفت معدن الرجل

الادبى واطلاعه على مختلف التيارات الفكرية ومدى صلته بالادب التونسى الحديث وخاصة مجلة « الفكر » وما تحمله من دراسات ـ كل شهر ـ وتأملات ثرية ونضال صاحبها فى سبيل ارساء أدب تونسى له سماته المتكاملة وينابيعه وأصوله ورجاله ، ثم جاء للمرة الثالثة 85/2 فى نطاق النشاط الثقافى الذى تعده وزارة الثقافة فى نطاق الاهتمام بالادب التونسى والاردنى اعتذر عن الحضور فى مهرجان الشابى بسبب ظروفه الصحية والسياسية أيضا . وأثناء وجوده بتونس فى المرة الاولى والثانية أوحت له هذه الاقامة الطيبة بقصائد ضمنها ديوانه الاخير (أناشيد أخرى) (صدر بعمان 1983) وما يزال صوته يرن فى أذنى فى سنة 1966 عندما حضر أعياد النصر فى تونس وألقى قصيدا بقصر قرطاج أمام المجاهد الاكبر وبحضور الشاعرين الطاهر زمخشرى وحسن عبد الله القرشى ، فكانت بمثابة تحية المشرق الى أهل المغرب ، ونال وسام الجمهورية اعترافا باسهامه فى التعريف بسيرة الادب التونسى الحديث :

صفحات التاريخ اروع ما تزهو اذا خطها دم الشهداء
فى كفاح وتضحيات عوال فى سبيل الامجاد والعلياء
ان للعز والتحرر دربا هو درب الفدى وبذل الدماء

يا تونس البلد الأبى
بلغت بالبذل المنى

وقهرت بالعمل التخلف … بعد قهرك للعدى
ومشيت ناهضة إلى … العلياء ثابتة الخطى
والحبيب الذى لأجلك ضحى … واستساغ العذاب والحرمانا
قاد منك الخطى الى النصر فى … حزم وفى حكمة وما قط لانا
كنت فى عينيه الضياء سخيا … كنت فى عمق قلبه الايمانا
بنزرت تشهد كيف ارخصت … النفوس ولم تبال
وحياتك الشماء والهضب … المخصبة العوالى
وسهولك الفيحاء والواحات … وارفة الظلال

ذلك أن الشعر عنده هو احساس يعبر عنه الشاعر باللهجة السريعة المباشرة ، فكرة تملأ نفسه فيخرجها للناس ببساطة ودون تعقيد ، وهو ينظر الى القصيد من زاوية التعبير الجميل بهمسة قصيرة مباشرة عن فكرة أو حس أو صورة . ومثل هذا التعبير تكفيه الابيات القليلة الشاعرة ، المصرة ، ان الصورة الجميلة والاحساس الجميل انما يقتلهما الكلام الكثير ويقتلهما أكثر

الكلام الملقلق الذى لا يبين معناه (من مقدمة الديوان ص 5) وفى المناسبة التى أتاحتها له وزارة الشؤون الثقافية بأن زار بلادنا ووقف على قبر (الشابى) صحبة المرحوم عثمان الكعاك ، فاستوحى من خياله ما طمح اليه سابقا فى الافصاح عما بخلده وهو فى الاردن . أو فى كتاباته النقدية فى المجلات والصحف الشرقية وحتى التونسية ، واذا القصيد هو لوحة تختلج فيها عوامل الصدق والوفاء والاكبار للارض التى انجبت أبا القاسم ولأهلها الأوفياء الصادقين فى عواطفهم اتجاه من أحبهم بصدق :

أنا فى توزر ومن قبل كنت — حلما توزر ومنيه خاطر
هيجتها فى النفس أصداء لحن — نقلته الاطيار عن حس شاعر
عن أبى القاسم الذى سكب — الالحان من حسه الرقيق الفاتر
أنا فى توزر ونفسى ملأى — بعبير من غابها الحلو عاطر
وبروحى يرف روح حبيب — ساحر اللحن عبقرى الخواطر
يا أبا القاسم العظيم سلاما — أنت من هذه الفراديس طائر
أنت طير فى جنة السحر هذى — لم يمتع بمثل جنحيك ناظر

ويتجدد اللقاء بتونس وأهلها مجددا ــ عن طريق وزارة الثقافة ــ فيفرى 85 وتونس قفزت فى ساحة الفكر ، من تلمس الطريق الى الابداع الحق ، الى النهضة التى دعا اليها فى مقاله بمجلة « الاديب » لان تكون نهضة فكرية مغربية السمات والالوان ، تبعث نشاطا جديدا فى دم الفكر العربى .

ويأتى للمرة الرابعة ولكن تفتقده الساحة الادبية من تونس ومن نشاط مجمع اللغة العربية الاردنى ومن الصحافة الشرقية ومجلات الخليج (آخر لقاء أدبى صدر معه لمجلة « الفيصل» 1985/11) ومجمع اللغة العربية بالهند ، تفتقده مجلة « الفكر » وكان من المؤمل أن يشارك فى المجلس الفكرى مع الاستاذ محمد مزالى وصحبة الاساتذة : جاك بيرك وعامر غديره وأحمد خالد وعبد العزيز قاسم وأبى يعرب المرزوقى ومحمد الطالبى لكن المنية كانت أسبق من اللقاء . ونشر بحثه فى العمل 85/10/7 وأنقل مشاعر الوفاء لروح هذا الصديق ولعائلته ثم للاستاذ الاخ عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الاردنى فالعزاء من أصدقائه ، وتحية من الاعماق لرجل أحب تونس وأعطاها ما قدر عليه من كلمة صادقة وانتاج متكامل ، وحضور مستمر فى ساحتها . وبموته فقدت تونس وفقد فيه أصدقاؤه من رجال الفكر والادب وطلاب المعرفة.ورجال الاستشراق ، علامة مضيئة من علامات الابداع والخلق .

كلّ شيْئٍ بارِد ..

شعر: عبد الرؤوف بوفتح

باردٌ هذا المساءُ ..
باردةٌ أعصابُ هذا العامِ
– لاَ حُلْمَ يُغَطّي جَسَدِي ،
– لاَ خَمْرَ تَرْوِي قَدَحِي ،
– يَا مُدُنًا تُشْعِلُنِي .. (ألْعَنُها / تَحْضُنُنِي)
كَيْفَ امَّحَى صَلْصَالُ هَذَا العُمُرِ ..
مَنْ ضَيَّعَنِي ؟

* * *

بَارِدَةٌ كَفِّي ،
عُيُونِي ،
ضِحْكَتِي
كُلُّ دَمِي : ثَلْجٌ ..
فَمَنْ غَيَّرَ فَصْلِي ؟
مَنْ يَقُودُ الآنَ ضِدِّي .. فَرَحِي ؟؟

* * *

بَارِدَةٌ ذَاكِرَتِي جِداً
تُرَى هَلْ نَسِيَتْنِي ؟

مَثَلَمَا المِرآةُ تَنْسَى وَجْهَ أُمِّي . !
بَارِدٌ « كُرْسِي عَبْدِ اللهِ » (٭) أَيْضا .:
أَيْنَ فَرَتْ أُغْنِيَاتُ اللَّيْلِ فِيهِ ،
وَفَرَاشَاتُ الطُّفُولَهْ ؟؟
كَانَ خَلْفِي
يَتَعَرَّى فِي إِنَاءِ اللَّيْلِ مِثْلِي
كَانَ لِي :
(غَابَة أَقْمَار ..) (٭) فَغَابَتْ
لِمَ غَابَتْ ؟
لِمَ يَا « مَالِك » تَدْنُو مِنْ صَقِيعِي أَنْتَ أَيْضا .. ؟
أَيُهَذَا العَامُ ..
(هَلْ كُنْتَ السَّبَبْ) ؟ .

تونس 1985/12/31

عبد الرؤوف بوفتح

٭ عبد الله + مالك أعنى به صديقى الشاعر «عبد الله مالك القاسمى» .
ـ «غابة أقمار» استعمال لنفس الشاعر .

تاريخ السقاية بصفاقس

بقلم : محمد الشعبوني

أبى الله الا أن يكون وضع مدينة صفاقس الجغرافي وضعا يحدد من نسبة نزول الغيث عليها ذلك انها لم تكن بموضع قريب من الجبال والهضاب وانما جاءت على ساحل البحر بعيدة عن المواطن التى تساعد على تكثيف السحب وجلب الامطار . فكان حظها من تلقى غيث السماء قليلا ... واستمرت المدينة بحاجة الى المياه ... ولذلك رأينا أهلها منذ القدم يعمدون الى الاستعانة بالمواجل لخزن المياه والآبار التى كثيرا ما تكون غير سائغة فيستعملونها للتنظيف والرش وغير ذلك ... وكثيرا ما تغنى الآباء وكتب المؤرخون عن صدى أهل الجهة وتعطشهم الى المياه للشراب وسقاية الفرس والحيوانات ... حتى ان الدعاء كان يوجه الى المدينة موحيا بهذه الحالة وداعيا الى طلب الرحمة من اللـه .

يقول الشاعر علي بن حبيب التنوخي المتوفى سنة 449 هـ :

سقيا لارض صفاقس ذات المصانع والمصلى
فحمى القصير الى الخليج بقصرها السامي المحلى
بلد يكاد يقول حين تزوره : أهلا وسهلا

فتراه استهل وصفه للمدينة بالدعاء لها بالسقى ... وهو أهم ما تحتاج اليه فى حياتها . وقد قال الشريف الادريسى فى النعقاية عن مدينة صفاقس : « وشرب أهلها من المواجل » . وقال ابن حوقل : « وشربهم من مواجل بها ومواجلها صالحة الطعوم حافظة لما استودعته » . ويقول التجانى : « وانما يعتمدون فى شربهم على ما يدخرونه من مياه الامطار ، ويلاحظ المتأمل استعداد الاهالى نتيجة لازمات الجفاف لبناء المواجل والآبار والفستقيات

لاختزان المياه وكانوا يحبسون الارزاق على بناء المواجل وترميمها وجلب المياه بالطرقات والمساجد » .

وقد عاب بعضهم على صفاقس هذه العلة وهجاها كالمعز بن سليمان النبى تولى المدينة سنة 665 هـ وقال :

صفاقس لا صفا عيش لساكنها ولا سقى ارضها غيث اذا انسكبا

هذا ويذكر لنا الاستاذ محمد المهيرى بمجلة العزائم فى سنتها الثانية عدد 3 وعدد 4 : «إنه كان لاهل صفاقس اهتمام شديد بجعل معاطن ماء لما ينتابها من العطش خصوصا عند قلة الامطار رغم وجود مواجل فى غالب الديار » وفى هذا الصدد يقول كتاب تاريخ صفاقس : (وفى صفاقس عدة مجموعات من صهاريج الماء كمواجل السبعة بطريق العين وكان شراب أهل المدينة من المواجل الخاصة أو العامة المحدثة ببعض الازقة أو من الآبار العذبة كبئر (الحصار) الذى كان بجوار القصبة وبئر سوق الفكاهين أو فستقية الاغالبة التى كانت تحت السور الشمالى من الجهة الغربية وكانت بجوارها بئر لسقى الدواب تسمى عين الزريبى أو عين التريكى بطريق تنيور وغيرها ... كما ان اسم طريق العين سابقا يشير الى ما كان يوجد بالطريق من عيون .

الناصرية : ولما ورد الملك الناصر على صفاقس سنة 601 هـ. اشتكى اليه الاهالى مما كانوا يقاسونه من وطأة العطش فاذن بجعل بناية مواجل على عدد أيام السنة 365 ماجلا قائلا : « يكفيكم فى كل يوم ماجل » ثم زاد عليها أصحاب الخير واحاطوها بسور وهى التى كانت تسمى بالناصرية نسبة الى أبى عبد الله محمد بن يعقوب الملقب بالناصر الذى قدم الى صفاقس فى أوائل القرن السابع الهجرى وأمر بهذا البناء الذى أتمه وأصلحه وجعل له بابا المرحوم محمد بن مراد باى فى القرن الحادى عشر .

ويقول الاستاذ محمود خروف فى مقاله (السقاية بصفاقس) المندرج بجريدة النهضة الادبية العدد 32 الصادر فى 14 أوت 1944 تعقيبا على ما ذكرناه (ولما كثر أهل البلد وامتد عمرانها شرع أهل الخير فى زيادة الصهاريج فمن مقل ومن مكثر ومن واحد الى أربع وكل حسب طاقته وصار الناس يوصون بثلث تركاتهم لبناء المواجل فى الناصرية فكثرت وبلغ عددها ستمائة صهريج يسع جميعها من الماء اثنى عشر الف متر مكعب وقد كفت الناس فى ذلك العهد فى سني الخير والغيث واما اذا توالت سنوات العطش

الشداد فانهم يرجعون الى شرب مياه الآبار وفي ذلك تعب كبير) . والناصرية الآن هو مكان معهدى مجيدة بوليلة ، والهادى السوسى .

مواجل البقر فى القرن السادس الهجرى :

يقول الشيخ محمد المهيرى فى مجلة العزائم س 2 عدد 4 : (ومـا واقعـة مواجل البقر ببعيد وهى واقعة لها مغزاها وكيفية مبناها انه لما استولى على صفاقس النرمانديون ضايقوا الامـة فابتكـر الاهـالى فكـرة للتخلص منهـم وعمدوا الى حفر دهليز تحت المكان المعروف (بالرمانة) و (سـوق الزيت) ويتصل بماجل متصل بالجامع الاعظم هناك ونصبوا فيه حـدادين يخدمـون سلاحا بصفة حراب مستور بعصى ذات لولب ثم طافت الطائفة المكلفـة على الدور لاستعلام عدد ما فيها من الرجال بقدر ما يخرجون من حبات الفول وبعد ذلك سلموا الى كل دار نصيبها من العصى المخدومة . وعينوا موعـدا ليـوم الخروج للعب « الزقاره » وهو نوع من ألعاب الرياضة يتعلمونه لمقاتلة الاسود عند وجودها فى الاشجار . ثم جمعوا من أهل الفضل زينـة وأموالا واشتروا بقرات وزينت بالحلي والزينة وطافوا بها البلاد واشعروا السامعين بوقـوع مهرجان ألعاب شيقة وكان ذلك جوفى صفاقس من الناحية الغربية حيث محطة العربات العمومية الآن وخرج الشبان ولم يتخلف منهم ما يؤبه له وساعدوهم على التمكن والتفرج وأحاطوا بهم وباللاعبين احاطة السوار بالمعصـم وازفـت ساعة العمل فهجموا على الاعداء هجوم الاسود الضوارى بالطعن لما فى باطـن تلك العصى التى أصبحت سلاحا محكما فاردوهم عبرة للناظرين) .

ولما تمت العملية تفقدوا تلك البقرات فلم يجدوها وهى محملـة بالمصوغ والحرير فاتبعوا اثرها فوجدوها رابضة بمكان على طريق تونس فنزعوا مـا عليها وأرادوا ارجاعه لاصحابها فامتنعوا من قبوله قائلين : إنا جعلناه لوجه الله صدقة فلا نرجع فيه وضعوه حيث شئتم من المصالح فاتفقت كلمتهم على جعل مواجل فى نفس المكان الذى وجدت به تسمى بمواجل البقـر على ان الكثير من الباحثين لا يرتاحون الى هذه القصة ويرونها من وضع الخيال .

صهريـج الصـاغة :

لقد كتب الاستاذ أبو بكر عبد الكافى فصـلا بجـريدة الصبـاح بتـاريخ 1968/10/31 تحت عنوان (صهريج الصاغة) تحدث فيه عن الماجل الكبير الذى صنعت فيه الاسلحة فى القصة المذكورة اعلاه والذى كانت لـه عـدة

فوهات تحدث عن امكنتها باطناب ويرى الاستاذ عبد الكافي ان هذا الصهريج أشار بحفره وبنائه الوالي عمر الغرياني الذى انزل اليه جماعة من الحدادين والنجارين ومدهم بما يلزم من آلات ومواد وصنعوا به شر ما يكفي من الاسلحة لابادة العدو . وكانت المهرجانات التى انتهت بمصرع الاعداء يوم 13 جانفى 1158 أو 1159 وهى الليلة الموافقة لليلة رأس السنة الاعجمية ومعروفة لدى سكان صفاقس بلية (الحاجوجة) وفيها يطبخون (المريسة) وهى طعام فيه الفول تذكيرا بما وقع عند جمع عدد الحاملين للسلاح .

فستقية الحديقة العمومية :

لما تولى حسين باشا الاول سنة 1117 وبلغه ما يعانيه أهالى صفاقس من شدة العطش استدعى أهل البلد وأعلمهم بعزمه على انشاء فستقية كبيرة تخزن مياه الاودية ... ولما مات تولى ابنه علي باشا الحكم سنة 1147 وكان صاحب خير واحسان فأمر قائد البلد المرحوم بكار الجلولى بالنظر فى هذه القضية وكان رحمه الله حريصا على فعل الخير لا سيما فى شىء يعود نفعه على أهل البلد وبقى ثوابه لفاعله فى الآخرة . فامتثل القائد الى الامر وبادر الى الفعل واحضر كبار المهندسين فى عهده كامين البناء الحاج سعيد القطى والاسطى الطاهر المنيف وغيرهما وقد عرفوا الباى بما انتهى اليه أمرهم فجاء الجواب بالانجاز وتم البناء وهو البناء الذى شيد فوق أرضه المسبح البلدى الجديد وحجمها ستة عشر ألف متر مكعب وقد بنى أهل الخير الى جانبها صهريجا عظيما وبلغ ذلك الباى فأمر بارجاع المال الى أهله وضمه للفستقية . وكان يوم امتلائها عند أهل البلد يوم عيد ومسرة يبتهجون فيه ويتناشدون الاشعار وكان الابتداء فى بنائها أوائل شوال سنة 1186 وانتهى البناء فى أواخر الربيع الثانى 1188 . وأمر الامير علي الباى ببناء فندق أوقفه عليها ويقال: إنه المسلخ الذى كان بقرب باب الديوان وقد هدمته الحرب العالمية الاخيرة وكان جملة ما انفق عليها 14.180 ريال وعلى الفندق 8.000 ريال .

يقول الاستاذ عبد الكافى فى كتابه ص 198 وشكل كل من الفستقيتين مستطيل ، فالفستقية الكبرى طولها 115 ذراعا وعرضها 99 ذراعا وعمقها سبعة أذرع فتسع 69.695 ذراع ماء مكعب والفستقية الصغرى طولها 115 ذراع وعرضها 31 ذراعا وعمقها أربعة أذرع الا ربعا ويكون مجموع سعتها بحسب اللترات 6.700.536 ل من أحسن ما قيل فى الاحتفاء باتمام بناء فستقية الحديقة العمومية قول الشاعر ابراهيم الخراط فى مدحه للامير نقتطف منه ما يتصل بالموضوع :

أمير المؤمنين بقيت سترا على الخضرا بملك مستطيل
ولا زالت عباد الله تثنى عليك ثنا الرياض على السيول
أرحت صفاقسا من كر محل ومن عطش ومن كرب طويل
ومن شرب من الآبار ملحا يزيدهمو لهيبا فى الغليل
ولاحت بركة عذبت وراقت وجعدها النسيم لدى الاصيل
كأن مياهها عسل مصفى فيا لله من ذاك السبيل
فانشد فى تمامه اذ تؤرخ سبيل جا كطعم السلسبيل

الآبار الارتوازية :

ولما ازداد عدد السكان وتوسع العمران أصبحت سعة هذه الاماكن غير كافية بالمرة وفى القرن الثانى عشر الهجرى بنيت كما يقول الاستاذ خروف البئر المعروفة ببئر (الشعبونى) وبئران ارتوازيتان احداهما تعرف ببئر (مولانفيل) والثانية بئر (بيكفيل) ثم حفرت خمس آبار بسيدى صالح تعطى يوميا اربعمائة متر مكعب وجلبت فى قنوات الى المدينة .

ماء سبيطلة :

وازدادت الحاجة الى الماء ووجب التفكير فى العثور على حل ناجع مفيد طويل الامد يسقى البلاد والعباد . خصوصا وصفاقس معروفة بانها حديقة البلاد التونسية ورياضها وغاباتها مشهورة بانتاجها ونضارتها فرأت الحكومة أن تجلب من عين مدينة سبيطلة البعيدة بنحو 165 كم قنوات تحمل الماء الصالح للشراب وقد تم جلب المياه فى قنوات من سنة 1909 الى سنة 1912 ثم وضعت قنوات من معدن (الفونت) جلبت معه المياه الى صفاقس وذلك سنة 1914 وقد بنيت لها أربع جواب تسع اثنى عشر ألف متر مكعب تخزن مياه القنوات ثم تتوزع على المدينة بقنوات أخرى وقد بلغت تكاليف هذه العملية اثنى عشر مليونا من الفرنكات وهكذا نرى المياه تغزو من ذلك الوقت الديار والجداول والبساتين وتكسب الاشجار نماء وحيوية وازدهارا .

وقد نشرت جريدة العمل عن قصة تزويد صفاقس بماء سبيطلة كلمة وجيزة بعددها الصادر فى 66/4/14 جاء فيه : « من المعلوم أن عاصمة الجنوب تزود بالماء الصالح للشراب بواسطة قنوات تمتد من سبيطلة حيث تكثر العيون وجلبها مكتشف من عهد الرومان وقد شرع المسؤولون فى

التفكير فى هذا المشروع فى ديسمبر 1903 عندما اتضح لهم ان صفاقس لا يكتب لها التقدم والازدهار والرقى ما دامت فاقدة المادة الاساسية لحياة البشر ولنفع الحركة الصناعية الا وهى الماء ، ومن سنة 1907 بدأ الفنيون فى اجراء الدراسات التى استغرقت مدة عامين تقريبا واتضح على اثرها أنه ينبغى مد قنوات طولها 166 كم تسمح بايصال الماء الى صفاقس بمعدل 50 لترا فى الثانية غير ان البلدية فى اجتماعها المنعقد بتاريخ 20 افريل 1909 طالبت بأن يكون حجم القنوات متسعا حيث يسمح بثه فى 100 لتر فى الثانية ووقعت البتة فى 25 جوان 1910 فكانت من نصيب شركة (قنطرة موسون) التى شرعت فى الحال فى العمل فاستغرقت اعمالها 5 سنوات وفى ماى 1914 قامت الشركة بتجربة القناة فوصل الماء الى الكيلومتر 11 بطريق منزل شاكر وفى 14 جويلية 1914 تدفقت المياه العذبة الواردة من سبيطلة فى الحنفيات العمومية الاولى المقامة بحى بيكفيل ثم عم الماء كامل المدينة .

وتطورت وسائل وطرق وأنواع جلب المياه فى كل مكان واخذت المنازل حظها من ماء سبيطلة مما جعل المواجل المبثوثة هنا تفقد اهميتها وتزول شيئا فشيئا بين مرتاح البال وبين مستاء من زوالها لما قامت به من دور خطير فى حياة الغابة بصفاقس .

وممن تحدثوا عن حاجة صفاقس الى المياه وهجوها ما ذكره شاعرها الغراب بقوله :

وقلت وماء السما ينهل من سحب ... وراح سيله فينا دائما جار
ايا سماء على البلدان هامية ... الا على بلد يابس اشجار
مالك بلت على أرض صفاقس ما ... من السحاب كرش الظل للسارى

استغاثات :

وفى التوسل لله ان ينزل غيثه قال مستغيثا من البحر البسيط ص 34 من ديوانه :

يا من له المشتكى يا راحم المهج ... عجل لنا بنزول الغيث والفرج
واسق البلاد وارو الارض من ظما ... بماء مزن على الآفاق منبسج
وأكسها حلل الانوار ضافية ... خضرا بهيجة من نورها البهج
حتى يرى وجهها الزاهى بزهرته ... فى بهجة بدلا من وجهها العسج

ويصبح البر من صوب الغمام يرى كانه البحر بالامواج فى لجج
فيقتل الجدب احياء البلاد به فى بحره غرقا من كل مختلج
كل أتى باب فضل منك سائله وليس عن بابك الاسمى بمنعرج
وقلبه وجل بالذل مؤتزر لله مفتقر فيما لديه رجى
النفس في وصب والجسم في نصب والقلب فى كرب والصدر فى حرج
اليك مدت اكف الخلق سائلة وطفاء نائلة من فضلك النهج
فلا تخيب رجاء القاصدين الى أبواب فضلك يا من بالوفاء رجى
انت الملاذ اذا ما شدة عظمت وليلها بصباح الكشف لم يهج
يا رب ان عظمت منا الذنوب فما تعظيمها فى عظيم العفو من نتج

وهو قصيد طويل نكتفى منه بما أوردناه .

ويقول المراكشى تلميذ سيدى أبى الحسن الكراى مستغيثا :

يا واسع الجود والاحسان والكرم عجل بغيث بجاه البيت والحرم
واصرف الينا سحابا واسعا غدقا يا من يجيب دعا المضطر فى الظلم
والزرع من قلة الامطار يابسة أوراقه قد بدت فى حيز العدم
ان البهائم قد ضر الهزال بها وقل جهد لها لم تستطع تقم
كذا الارامل فى كرب وفى ضرر والشيخ والكهل ثم الطفل فى ألم
شد الخناق وضاق الذرع وانهملت دموع أعيننا من شدة السقم
ان العباد لفي جهد وفى ظما وفى غلاء وفى ياس وفى نقم

وهى تدل على ما كان يقاسيه الصفاقسيون من عنت العطش وازمة الظلما .

ومن موشحات أبى الحسن الكراى المتوفى سنة 1105 ما يشعر بشدة لهف صفاقس على الماء وطلبهم للرحمة والتجائهم الى الاستسقاء كلما حلت بهم مصيبة الجفاف . من ذلك قوله فى بهجة الموشحات :

باسم المهيمن ابتدى هذا النظام لعل يرحمنا
بحق طه المصطفى البدر التمام يا مالكى غثنا

عطشت الامة كبارا وصغارا يا خالقي فارحم
بوابل يحيي الاراضي والثمار والوحش ثم النعم
والورد والنسرين وألوان النوار في ظهور الألم

وهو الذي يقول :

ارحمنا يا رحمان بجودك اسقينا
بالهاشمي العدنان يا مالك غثنا
من شدة الازمة نفوسنا ضاقت
يا واسع الرحمة قلوبنا ذابت
فرج على الامة لغيثك اشتاقت

وآخر ما نختم به هذا البحث الاستعراضي عن تاريخ السقاية بصفاقس ما ورد في كتاب الحلل السندسية عند الحديث عن أبي خارجة الغافقي المتوفى سنة 210 هـ ، والمعروف بعنبسة الخارجي ما نصه : ذكر انه أصاب الناس بصفاقس سبع سنين قحط فاتوا أبا خارجة يستسقي لهم فقال لهم : تأتونَ غدا بنسائكم وصبيانكم وبهائمكم وتبيتون الصباح الليلة فاذا كان غدا قفوا بين يديه وتضرعوا اليه فانه يرق لحالكم ففعلوا ذلك وخرج أبو خارجة فصلى بهم وخطب ودعا ثم جلس الى الصلاة وقد اشتد الحر وبكى الاطفال وصاحت البهائم من الحر فصلى بهم الظهر ثم بسط يديه وقال :

« انت مولانا ما لنا غيرك ولا سواك بك نالوا الدرجة الرفيعة والمواهب العالية ولو لاك ما نالوها وانت ذو رحمة واسعة وانت العالم بأحوالنا وتُبيح اعمالنا ومالنا غيرك ولا سواك وقد قامت آمالنا بك وقد حبونا بين يديك ، بهائمنا جائعة وأرضنا سواد يابسة وقلوبنا خائفة وبيوتنا فارغة وسماؤك عامرة وخزائنك واسعة فاسقنا سقية نافعة تجدد الايمان في قلوبنا ولا نبرح بين يدي كريم حتى يسقينا ووسيلتنا نبينا الذي جعلته وسيلتنا اليك صلى الله عليه وسلم » .

قال فاذا سحب بيضاء بدت لهم ثم اندفعت السماء بالغيث فمضى أبو خارجة يرفع ثيابه ويقول بهذا يعرف الكريم هذا فعلك في من قصدك بهذا تعرف وتوصف . ولقد عشنا وما زلنا نعيش فترات هذا

الانحباس رغم تطور وسائل السقاية وما زلنا نتذكر ونحن صغار تلك الاناشيد والمناجيات التى كنا نتقدم بها الى الله فى ضراعة وتودد :

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا ارحم عبيدا اكف الذل قد بسطوا

أو القصيد الذى طالعه :

يا ربي يا واسع الدرج عجل بالغيث والفرج

وعن زيارة عيسى بن مسكين . قال مقديش :

« ولم يزل أهل صفاقس عند القحط يذهبون لضريحه يستسقون به فيسقيهم الله . وهكذا نرى ان وسائل السقاية بصفاقس تطورت من الوادى والعين والبئر والماجل والصهريج والفستقيات الى الحنفيات بالشوارع والمنازل ومن منا ينسى وهو صغير تلك (المصاصات) التى كانت توجد (بالرمانة) وبجانب جدار مسجد أبى شويشة ... يقع الاستقاء منها بواسطة امتصاص الفم ومن منا ينسى تلك الاحواض الكبرى التى كانت موجودة بضواحي شمال المدينة تسقى الدواب ..!؟ كل هذا يمر بنا بسرعة .. ومن حقنا ان نلتفت اليه لنرى كيف تطورت احوالنا وتقدمت أوضاعنا وان كنا ما زلنا فى حاجة الى رحمة الله ورعاية السماء فالغيث وحده هو الذى ينفع البلاد ويسقى العباد ويساعدهم على خدمة الارض وسقى الغابات . فالماء جعل الله منه كل شيء حى . وهو الذى انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض .

خاتمة :

هذه هى قصة المياه بمدينة صفاقس كما كانت بالامس. وهى تشير الى مدى ما كان يعانيه أهالى الجهة منعناء الشراب وسقيالدواب والاشجار فقد كانوا على انتظار ما تجود به السحب فيدخرون ما يدخرون وقد تطول مدةالانتظارفتنتهى الكمية المدخرة رغم ما استعدوا له من تشييد المواجل والآبار والفستقيات فيبقى الجميع يرتجون رحمة الله ويتجهون اليه فى صلوات الاستسقاء ويتوسلون اليه بقراءة صحيح الامام البخارى فى المساجد حتى اذا تقدمت الحضارة واتسع عدد السكان وقع التفكير كما رأينا فى جلب الماء من بعيد بواسطة القنوات من عين مدينة سبيطلة سنة 1914 . واصبح الماء فى المنازل ومن ليست له قدرة على ذلك فان الحنفيات العمومية المبثوثة فى الانهج والشوارع والساحات

كانت موردا لضعفاء الحال انشئت مراكز لتهيئة المياه وجرها بواسطة العربات وتغيرت المفاهيم وأصبح خرير المياه يسمع فى كل بستان ويسقى بـه أغلب المنازل على ان المساكن الريفية البعيدة لم يمنعها بعدها فى عهد التنميـة من أن تهيأ لها أسباب للحياة والرقى بواسطة الآبار الارتوازية بعد انكانت تعيش على مياه الوادى الصغير مدة من الزمن على ما فى ذلـك من توقـع لانتشـار الامراض لتعفن المياه الراكدة وان الميزانية التى رصدت للتنمية الريفية لا بـد لها من ان تعوض حاجة الارياف الى السقى . وان اقامة بعض السدود ممـا يحفظ لها كمية من الماء تستعين به فى الزراعة والفـلاحة وتـربية الحيـوان واصبح التكهن الجوى خير مشير لاخذ الاحتياطات اللازمة ومعرفة مدى مـا تجود به الامطار سنويا على الولاية فالعلم قد اخذ طريقه الى كل ميدان وغزا كل حى وانتشرت اثاره فى كـل ضاحية وان الانسان الذى كـان يعتمـد فى شرابه مهما كان طعمه على رحمة الاقدار وخزائن السماء فى أوقـات تقـرب وتبعد فانما اليوم بفضل التقدم والتفكير الصحيح فى اعداد المياه الصالحـة للشراب بهذه الواسطة أو تلك اصبـح الانسـان يعيش فى ظـل الـراحة والطمأنينة بعيدا عن تلك الاجواء التى عاشها الآباء والاجداد وان كنا نسلـم بأن المياه النابعة من الارض التى يقع استخراجها بطرق علمية عصرية ويقـع توزيعها على الناس بواسطة الاشتراك فى شركة استهلاك المياه كلها من السماء وانما هى مختزنة هناك ولم يقع الاهتداء سابقا الى استخراجها (وجعلنا من الماء كل شيء حى) (وفى السماء رزقكم وما توعدون) .

وهكذا أصبح الماء فى متناول السكان وترى المنزل الواحد يضم الماجـل والبئر والحنفية ومع ذلك يضيف صاحب المنزل ـ ان كان موسرا أو مريضا ـ قوارير مختومة من المياه المعدنية المجلوبة من هنا وهناك .

واذا كان ابن المدينة اليوم لا يفكر فى حاجته الى الماء فمن المنتظر ان نرى ابن الريف هو الآخر تغمره وسائل الشراب ولم يعد فى حاجة الى معاناة نقص هذه المادة الحيوية وما ذلك على دولتنا بعزيز .

محمـد الشعبـونى

انت التى عشت عمري لها دون علم

شعر : محمد الامين الشريف

لِعَيْنَيْك لَوْنُ الحَيَاهْ
وَللوجنتَيْن المُنَوَّرتَيْن اكْتِمَالُ السَّنَاءْ
وَللشّفتَيْن القُرُنْفُلتَيْن سُلافُ الغَرَامْ
وَللنَّهْد – وَالهفتي – عُنْفُوَان الدّلالْ
وَلِلخصرْ طَعْمُ الهوَى وَالحنَانِ ،
وَللكُلِّ فيك افْتِتَانٌ وَسِحْرٌ
يَجِيشُ بِأَخيلَتِي وَجَنَانِي

* * *

بَلَى ! أَنْتِ سَيِّدَتِي ..
رَوْعَةٌ نَادِرَهْ ..
مِنْ خَوَارِق هَذَا الزّمَانْ
يُبَاهِي بِك الحُبّ أحلَى الجَوَارِي
يُضَاهِي بِسِحْرِك
هِنْدا وَلَيْلَى
وَلُبْنَى وَعَبْلَهْ

وَعِزَّهْ وَخَوْلَهْ
وَكُلَّ الحِسَانْ .

* * *

عَلاَمَ إِذَنْ تَسْفَحِينَ الثَّوَانِي ..
المَسَاءَاتِ وَالسَّنَوَاتِ الغَوَالِي ؟
عَلاَمَ تُسِيئِينَ لِلْعُمْرِ وَهْوَ غُلاَمْ ؟
هُوَ العُمْرُ مَاذَا ؟
أَلَيْسَ سِوَى حِصَّةٍ مِنْ مَنَامْ ؟

* * *

أَمَحْكُومَةٌ بِالمَحَاذِيرِ أَنْتِ ؟ ..
وَمَجْرُورَةٌ بِالتَقَالِيدِ .. ؟
تَخْشِينَ مَامَا ؟
تَخَافِينَ بَابَا ؟
وَقِيلَ الأَزِقَّةِ ..
قَالَ الشَّوَارِعْ ؟

* * *

عَلاَمَ إِذَنْ تُرْهِقِينَ الجَمَالْ ؟
وَتُرْدِينَهُ دُونَ ذَنْبٍ يَتِيماً ؟
فَيَا لِلْخَسَارَهْ !
أَمَوْعُودَةٌ لِلصِّيَامْ ؟
وَلِلظَّمَإِ المُسْتَمِرِّ ؟
وَوَحْشِ السَّآمَهْ ؟
عَلَى الحُلْمِ تَفْصِلُكِ الآنَ ..

مُضْنِيَتِي نُفْرَةَ وَاحِدَةْ
أَلاَ فَانْزَعِي بُرْقُعَ الخَجَلِ الأُنْثُوِيِّ
وَهَيَّا اعْزُلِي خُصْلَةً مِنْ ضِيَاءٍ
تَشُدُّ لِحَاظِي لِسِحْرِ عُيُونِكِ
تُوقِدُ حُمَّى التَّلَهُّفِ فِي رِئَتَيكِ
وَتُضْحِي الرَّغَائِبَ وَالشَّهَوَاتِ ..
الحَبِيسَةَ فِيكِ
وَتُرْسِي الصَّبَابَةُ فِي شَفَتَيكِ .
وَهَيَّا افْتَحِي
شُرْفَةَ صَوْبَ نَيْسَانَ
خَلِّي فُؤَادَكِ ..
يَسْرَحُ بَيْنَ الوُرُودْ
وَيَهْزُجُ ضِمْنَ العَصَافِيرِ ..
يَرْفُلُ مِثْلَ الفَرَاشَاتِ حَوْلَ النَّخِيلِ
دَعِيهِ يَشُقُّ بَسَاتِينَ عِشْقِي
يُرَوِّعُ بِالوِدِّ كَابُوسَ صَمْتِي
وَيُنْدِىءُ بِالقُبُلاَتِ حَرَائِقَ شَوْقِي
يُرَوِّحُ عَنْ خَاطِرِي كَمْ عَنَاءٍ !
وَيُشْعِلُ دَوْمًا فَوَانِيسَ حُبِّي
وَهَيَّا إِلَيَّ
فَأَنْتِ الَّتِي عِشْتُ عُمْرِي
أُنَاشِدُهَا دُونَ عِلْمٍ/ وَرَبِّي !

محمد الامين الشريف

مجلة "الفكر" : الوسيلة هي الرسالة

بقلم : د. عبد العزيز شرف (مصر)

ـ 3 ـ (*)

ولا شك ان مزالى ابرز كتاب تونس الذين حاولوا ان يتتبعوا أحداث العصر ويقدموها فى شكل مقالى . ومقالاته ودراساته تتناول حركة الشعب فى مواجهة ثورة البناء والتقدم ، وكان اهتمامه بوطنه الحبيب الى قلبه مثار تقدير واعجاب من كل الوطنيين ، ومن المجاهد الاكبر الزعيم الحبيب نفسه .

ويتحدث عن زعيم بلاده ، المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة ، فيقول:

لا يزال اهتمام رجال الفكر والادب فى هذه البلاد متجها الى دور المثقف فى المجتمعات النامية ، بعد الندوة التى انتظمت فى هذا الصدد بنادى «ابو القاسم الشابى» خلال شهر رمضان المنصرم .

لقد تحمل الحبيب بورقيبة منذ اكثر من ثلاثين سنة أعباء كل المثقفين واضطلع بالرسالة المقدسة ، فلا أقل من أن يتحمل كل المثقفين اليوم بعض اعباء «الحبيب بورقيبة» .

ومن تحليل محتوى كتاب من كتبه مثل « من وحى الفكر » يتضح لنا تنوع الاتجاهات فى موضوع الرسالة الابداعية عند مزالى ، ومن ذلك ما يندرج تحت الوطنيات ، مثل :

تونس فى دروب الديمقراطية ، تونس تستقل ، تونس جمهورية ، التحرر الاقتصادى ، ثورة متواصلة ، العبرة من ذكرى الساقية ، الشعب ينتخب ، ثورتنا ، ذكرى 8 يونية .. ، جبهات ومعركة واحدة ، نخوتنا بعد الجلاء ،

(*) انظر «الفكر» ع : 4 ـ س 31 ـ جانفى 1986 .

من وحى الجلاء ، عيد الجلاء ، الجلاء الزراعى ، على عتبة مؤتمر المصير ، مؤتمر المصير ، الشعر وملحمة الكفاح التونسى ، الذكرى العاشرة لعيد النصر .

وما يندرج تحت عنوان المغرب العربى :

اساس وحدة المغرب العربى ، تضامن المغرب العربى ، معـركـة الوجـود الاكمل ، كيف نحقق وحدة المغرب الكبير ، فى سبيل ثقافة مغربية ، وحدة المغرب العربى بين الامل والواقع ، مسؤولية رجال الثقافة فى وحـدة المغـرب الكبير ، والتربية ووحدة المغرب العربى .

وتحت عنوان «الثورة الجزائرية» :

كفاح من اجل الحرية ، الثورة الجزائرية مغامرة انسانية ، لماذا نتضامن مع الجزائر ، فى سبيل الثورة الجزائرية ، ونصر مبين .

وتحت عنوان «شخصيات تونسية» :

فرحات حشاد ، ابن خلدون ، محمد العربى الكبادى ، الحبيب بورقيبة ، ابو القاسم الشابى ، مصطفى خريف ، وحسن حسنى عبد الوهاب ،

وتحت عنوان «قضايا ومواقف» :

سبيلنا ، العظمة فى اصالة الفكر الحر ، الحرية والديمقراطية ، الحرية الحق ، نحو مذهب فكرى تونسى ، حول مؤتمر الادباء المصريين الثالث ، مؤتمر الكتاب الافريقيين الاسبويين ، حرية الاديب والتفرغ ، الالتـزام ، نحو التونسى ، الحركة الادبية فى تونس ، تفاؤل ، قضايا الادب العربى المعاصر ، مؤتمر الكتاب الافريقيين الاسبويين ، حرية الاديب والتفرع ، الالتزام ، نحو اشعاع الادب التونسى ، مؤتمر الادباء العربى الخامس ، احياء الدين ، دعوة الى الاجتهاد ، الى من يظلم الادب التونسى ، كيف نقاوم آفات الفكر ، واجب المثقفين بعد مأساة يونيو ، هل انقضى عهد المجلات الادبية ، تمـرد الشباب ، بين الرياضة والادب ، تقدم العلم والاخلاق ، الاسلام دين الحرية ، تحـدى «واقعية» كبار الحومة ، الاديب الحق ، هل الادب مأساة بالضرورة ، والادب ملحمة .

وتحت عنوان «فى التعليم والتربية» :

فى سبيل تربية قومية ، فى سبيل الاصالة ، أول الغيث قطر ، بين الجامعة والمجتمع ، الجامعة والانتاج الادبى ، جدوى التعليم ، ومسؤولية الجامعة .

وتحت عنوان «شؤون الثقافة» :

الثقافة الشعبية ، نداء ، دور المثقفين ، دور الثقافة ، الثقافة والتثقيف ، التبادل الثقافي ، ان بعد العسر يسرا ، واجب النشر ، النشاط الثقافي ، الثقافة والتربية الشاملة ، لا مركزية الثقافة ، رسالة المثقف ، تطور الحركة الثقافية ، الجوائز الادبية ، مشكل توزيع ، مشكل توزيع ام استهلاك ؟ الادب وعناية الدولة ، تشجيع الانتاج الثقافي ، ونشاط متواصل ..

وتحت عنوان فنون الادب :

فى القصة التونسية ، فى سبيل القصة التونسية ، فى سبيل نهضة مسرحية ، فى الشعر والشعراء ، أى المسرح ؟ ، فى الشعر ، ومهرجان الشعر الاول ..

وتحت عنوان منهاج الفكر وشؤونها :

اتجاهنا ، « الفكر » تونسية مغربية وانسانية ، منهاجنا ، الحاجة الى التوجيه والتشجيع ، ضرورة التجارب ، وفاء ، ثبات ، مجلة الاديب الواعى ، « الفكر » والشباب ، سر النجاح ، نضال لا ينتهى ، خدمة الادب ، رب انعمت فزد ! نشوة العمل لوجه الله ، لكل امرىء ما سعى ، فكر حى شاب ، مرحبا بادب الشباب ، السعى الى النسخ الجديد ، ودفاع عن الفكر .

ورغم تنوع هذه الاتجاهات الفكرية والموضوعية عند مزالى ، فقد سادها بوجه عام جانبان : جانب اجتماعى يتمثل فى نقد المجتمع المعاصر سواء على الصعيد الدولى حيث يتربع على قمته ساسة لا هم لهم الا اشعال نار الحروب ولا يهمهم ما تعانيه البشرية نتيجة ذلك . او على الصعيد المحلى حيث تتربع على قمته طبقة اجتماعية منحلة وما يعانيه نتيجة ذلك افراد الطبقات الشعبية، ولا شك ان تعاطف مزالى مع هذه الطبقة انما يرجع الى نشاته فى دولة اسلامية مجاهدة . كذلك يتجه النقد الاجتماعى الى وضع المراة فى المجتمع العربى ، ولذلك عنى فى دراساته ووجهات نظره فى دروب الفكر بقضايا المراة على نحو ما نجد فى دراسته عن «تعليم الفتاة التونسية» يقول مزالى :

«ان الحديث عن المراة التونسية يستوجب اولا التعرض لمشكل المراة عامة والتعرف الى منزلتها الاجتماعية وحظها من المساواة مع الرجل . فقد اعتبر الكثير ، قديما وحديثا ، أنها أقل ذكاء من الرجل وأضعف من ان تضطلع بما يضطلع به من واجبات سياسية ويتحمله من تبعات علمية وثقافية ..

ولئن تغنى بها شعراء الوجدان وتغزلوا بمحاسنها وتلطفوا اليها وخطبوا ودها فلابراز جمالها وقابليتها لاسعاد الرجل وارضاء حاجاته ،

ويقول ايضا عن الحرية الحق ! :

الحرية حق مقدس وواجب أكيد : مظهران لماهية واحدة وجوهر واحد اذا فقد حدهما او اختل التوازن بينهما انقلبت الحرية فوضى او آلت الى استبداد وفى كلتا الحالتين هزيمة «الانسان» ..

ونحن ننادى بمجلس تاسيسى ليحدد حقوق المواطنين وواجباتهم حتى يتعايشوا فى كنف الحرية الحق ، على ارض هذا الوطن العزيز ، اخوانا متحابين لا ذئابا متناحرين .

ذلك معناه ان الديمقراطية التى نحن على ابوابها يجب ان نحققها سليمة قويمة مبرأة من كل شائبة ... فعلينا – اذن – ان نكون ايقاظا وان نحسن الاختيار حتى لا تصبح مجالسنا مسارح لاقصى المهازل وقما وحتى لا نصنع بأيدينا القيود التى قد نكبل بها من جديد ...

وكم من عبودية ترفل فى زى الحرية الكاذبة التى ليست لها من وظيفة سوى ذر الرماد فى العيون واخفاء قيود الجهل والبؤس والحيف الاجتماعى واختلاس المحظوظين كد الكادحين ...

نحن لا نريد حرية زائفة ، نحن نريد « الحرية » ! ...

ومزالى يرى قيمة الاتصال الادبى فى مدى تأثيره فى الجمهور المتلقى ، الذى خاطبه فى مقدمة أحد كتبه مؤكدا هذا الاتجاه الايجابى نحو الجمهور المستقبل ، يقول مزالى :

« هذه ، أيها القارىء الكريم ، « معالم اخرى » أضعها فى طريقك ، ألقاك بها وتلقاني ، بعد ان كانت سعت اليك كتبى « من وحى الفكر » و « مواقف » و«دراسات» و«وجهات نظر» .. فحفلت بها ورحبت ، ورأيت فيها صورة بينة الملامح ، بعيدة الافق ، لنضال دأبت عليه سنين طوالا وما زلت ، مساهمة منى فى ايقاظ الهمم واستنهاض العزائم وفتح البصائر ودعوة أهل الفكر من ابناء امتنا الى تكسير أغلالهم وتفجير طاقاتهم وتسخير قواهم لخدمة ثقافتهم ومعالجة قضاياهم وانارة شعوبهم .

وها أنا استجيب الى رغبتك ، معتزا بتشجيعك ، مؤمنا بتأييدك ، فاقبل عليك بهذه «الباقة» التى نضدت بين متفرقات وضممت ما كنت لقيتك به

فى مطلع كل شهر مدة خمس سنوات ، فاذا هو هذا الكتاب الذى أضعه بين يديك ... بعد ان اخترت له من العناوين «فى دروب الفكر» .

ولئن كان من معانى «الدرب» «باب السكة الواسع» و «الباب الاكبر» فان من معانيه «الطريق» ! والطريق - كما قال أحدهم - لن تكون طريقا حتى تكون بلا نهاية ! .. وذلك انها اشارة الى ما تتخذه المغامرة الفكرية من أبعاد وما تقتضيه من عمل مضن وسعى دائب واصرار مرهق وثبات عنيد وصراع عنيف بين الحقيقة والخيال وبين الخير والشر وبين الدعة والجهد وبين الواقع والغيب ، وهى بالتالى جوس فى مطاوى الحياة ... بما يكتنفها من معميات ويطغى عليها من ضبابيات ويتفرع عنها من متعرجات !..

وهل الفكر فى يقظته والوجدان فى وميضة والايمان فى يقينه سوى هذه الشعلة التى تشق ظلمات الحيرة وتزيل وساوس الشك وتنير شعاب الوجود ؟!..

وهل رجل « الفكر » غير هذا الضارب فى متاهات الحياة .. مستجليا آثارها ، مستقرئا اسرارها ، مستحضرا اخبارها ؟..

لقد حاولت ، يا قارئى الكريم ، ان اطرح بين يديك قضايا هى قضاياك وان اثير مشاكل هى مشاكلك ، وان اجابه متناقضات هى متناقضاتك ، وان اواجه تساؤلات هى تساؤلاتك ، وأن اقف من الوجود مواقف دعوتك الى التفكير فيها بكل جد ، ورجوتك امعان النظر فى ابعادها بكل صبر ومعالجتها بكل شجاعة !

ولقد كان ديدنى فى كل ذلك أن اكون معك صريحا ، اذ كنت أطمع بآمالى الى ان افيد قومى وشباب بلادى ، وان اعرض عليهم مآسينا وقضايانا عارية كيوم الحبساب ، وان اصدع بما اعتقده الحق غير مكتف بعرض القضايا دون حلولها ، بل كنت أدعو الى اعمال الفكر وايثار الصدق والاعتبار بما يجرى فى غير دارنا ... وهل التفتح شىء آخر غير الاعتبار اساسا بما يقع حولنا وفى ظروف حياتية تشبه ظروفنا ؟..

فلا تطمعن اذن ، أيها القارىء الكريم ، فى ان تجد - فيما اقدمه اليك - أدبا «ابداعيا» يجنح بك الى الخيال ويدعوك الى التأويل .. ويسمو بك او «ينزلق» .. ! الى ضرب من التسابيع الضبابية والتجليات الصوفية ، بل لقد سلكت اليك اسلوبا واضح العبارة ، فصيح الاشارة ، لم اركب فيه مركب

الرمز والاغماض ولم التجىء الى المداورة والالتواء ، رجاء النفاذ الى نفسك بلا تأشيرات ولا مسوغات ، واقامة حوار معك ـ وحوار آخر بينك وبين ذاتك ـ حوار قوامه نزاهة فى الحكم وصراحة فى القول وصدق فى معالجة الامور ٠

فعسى أن اكون قد وفقت !

والله الهادى الى سواء السبيل ٠٠٠» (5)

وينطلق مزالى فى اتجاهه نحو القراء من هذا الفهم العلمى فى رؤياه الابداعية الى مواصلة رسالته الفكرية ، وهو يصرح به فى مقدمة كتابه «دراساته» حين يقول :

«هذا كتاب يكمل «مواقف» ، ويحتوى ـ مثله ـ على جملة من المقالات المنشورة بمجلتى «الندوة» و «الفكر» وعدد من المحاضرات التى القيت فى مناسبات شتى ، وتناولت مواضيع مختلفة ، منها اثنتان يرجع بهما العهد الى سنة 1949 ، اى الى ربع قرن مضى ٠

وقد دفعنى الى نشر هذه النصوص ما لقيه كتاب ـ مواقف ـ من اهتمام شد ازرى ، وما حظى به من تشجيع ثبت قدمى وحملنى على المثابرة . وآمل أن يجد القراء فى «دراسات» فائدة أدبية وشاهدا تاريخيا ، وان يحفز كل الادباء والمثقفين الى الانتاج ، ثم الانتاج فالانتاج ، والاقدام على النشر رغم الصعاب ، دون ان يعبأوا بابتسامات القاعدين وتشكك المتفرجين ، فحركية الخلق اذا ما توفرت أسبابها النفسية وتهيأ مناخها الحضارى فانطلقت ، لن تعرف الانتكاس ٠

والادب التونسى فى حاجة ـ ليزدهر ويشع ـ الى مزيد من ثقة التونسيين بأنفسهم ، وفى حاجة الى ثبات رجال الفكر والادب فى مواقفهم ، والى طول النفس فى انجاز مشاريعهم ..

اما انا فقد حاولت ، واجتهدت ، وساواصل ٠٠٠ (6)

وهكذا أدب مزالى ، وثيق صلة بقارئيه ، ففى رؤيا مزالى الابداعية تظهر عملية الاتصال فى اسس صورها ٠ ولا شك ان اكثر المسائل الفنية صعوبة وأشدها تعقيدا ستتضح طبيعته لنا فى مجلة الفكر من ناحية عامل الاتصال ٠

(5) محمد مزالى : مقدمة فى دروب الفكر ، اكتوبر 1979 ٠
(6) محمد مزالى : مقدمة : دراسات 1974 ٠

ومن هذه المسائل ـ ما يذكره ريتشاردز ـ اسبقية العناصر الشكلية على المضمون ، ومسألة اللاشخصية او ابعاد الذات التى يؤكد اهميتها علماء الجمال ٠

واذا كنا لا نرى مزالى اثناء ابداعه للعمل الادبى يهتم عادة بالتوصيل عن قصد وبطريقة واعية ، فاننا نجد اثار هذا الاهتمام فى الاداء الصحيح للعمل الادبى ، كما نجد أثار هذا الاهتمام فى «تجسيد» التجارب الفكرية فى انتاجه، بحيث يجعل هذا النتاج على قد التجربة ويمثلها اصدق التمثيل ، على تعبير ريتشاردز ٠ فلعملية «الاداء» السليم نتائج اتصالية بالغة ، ودرجة التطابق بين انتاج مزالى وبين تجربته المعنية هى ذاتها معيار لمدار ما يحدثه النتاج من تجارب مماثلة عند الغير ٠

ومزالى حين يصرح بأنه يتجه الى مجتمعه اتجاها ايجابيا ، فانما يؤكد ذلك الدافع اللاشعورى فى رؤياه الابداعية والمتمثل فى الرغبة فى الاتصال وقد يرجع ذلك الى « توازن الفنان » فى رؤياه الابداعية ، الامر الذى يؤدى الى احداث التناغم والتوافق بين دوافع الاديب والدوافع الممكنة لدى القارىء ، فكل اتصال ناجح ـ كما يقول ريتشاردز ايضا ـ يتضمن هذا التوافق ولن يستطيع ان يعوض عنه اى تدبير وتفكير ٠

وبناء على هذا الفهم ، فاننا نجد اتجاه مزالى نحو الجمهور المتلقى اتجاها ايجابيا . هذا الاتجاه الايجابى يرتبط بالطبيعة الادائية فى رؤيته ، لنقل التجارب ، الامر الذى يجعل لانتاجه اكبر قدرة على الانتقال الى القراء ومن اجل ذلك يمتاز اسلوبه بوضوح وانطلاق متدفق ترتدى فيه افكاره ايسر العبارات التى تدل عليها ٠ وهنا يمزج بين الواقعية والرومانية ٠ وله «فكاهة جادة» تستمد من طبيعته ٠ فهو اذا ضحك لم يزد كثيرا على الابتسام ، واذا ضحك لم يثر فى قارئه شعورا بالسخرية المريرة ٠ كأنه يريد ان يروض قارئه على ما جبل عليه من طبيعة الاعتدال ، والقصد ، فهو سمح الخليقة ، هادىء النفس وهذا مما يقدره على الكتابة وعلى ممارسة نشاطه المتنوع ٠ انه ـ فيما يبدو ـ يضن بوقته وجهده واعصابه ان يبذلها فيما يطلق عليه « هوامش » الحياة التى تطغى على الحياة نفسها وتعطل او تعوق سيرها الطبيعى ، فلو نظرنا الى نواحى نشاطه المتعددة ، وهو مصدر عجب الناس من قدرته على متابعة جميع نواحيه فى كفاءة وكفاية متعادلة ، تنبع فى الحقيقة من مصدر واحد هو ايمانه بكرامة الانسان ٠ وهذا الايمان هو الذى جعله يتحمل مسؤولياته فى الحكومة والحزب الاشتراكى الدستورى منذ الاستقلال ، ويؤسس مجلة الفكر سنة 1955 ،

ويرأس اتحاد الكتاب التونسيين ، واللجنة الاولمبية العالمية ، الى جانب ما قام به وما يقوم به من اجل الانسان العربى ، الذى يمثل فى أدبه وفكره محور كل بناء ٠

وتأسيسا على ما تقدم ؛ يمكن القول ، ونحن نحتفل بثلاثينية مجلة الفكر؛ ان الصحافة التى صنعت الادب الحديث ؛ هى نفسها صانعة أدب المستقبل ٠

هذه المقولة التى يطرحها احتفالنا بمرور ثلاثين عاما على صدور مجلة الفكر انما نستند الى ما شهده العالم منذ اواخر النصف الثانى من هذا القرن من اهتمامات متزايدة بين رجال الفكر حول ظاهرة « ثقافة الجماهير » والتى أثارت جدلا كبيرا حول استخدام «وسائل الاتصال بالجماهير» ومميزاتها الايجابية والسلبية فى المجال الثقافى ، ولا سيما بعد ظهور الاجهزة الآلية فى التوصيل، ومنافستها للصحافة والكلمة المطبوعة استنادا الى «قانون بذل أقل الجهود»٠ ومازلنا نذكر «الدفاع» المجيد الذى قدمه الاديب الكبير جورج دوهاميل عن «الادب» على افتراض ان هذه الاجهزة الآلية ؛ قد أدت الى تقهقر القراءة ، وضعف مكانة الكتاب والكلمة المطبوعة فى نفوس الجماهير ٠

ولكن المفكرين قد حرصوا خلال السنوات الماضية على التأكيد بأن الكلمة المطبوعة سوف تبقى لها قيمتها وثباتها عند الجماهير ؛ فما تزال القراءة أعمق وأصح وسيلة للمعرفة والفهم والثقافة ٠

فاذا قلنا ان الصحافة هى «صانعة» الادب الحديث ؛ فاننا نستطيع ايضا ان نقول ان مجلة الفكر قد اسهمت فى صنع الادب العربى والتونسى خلال ثلاثين عاما من عمرها المديد باذن الله ٠ فالمجلة الفكرية ليست مجرد «أداة» فنية للتوصيل ؛ وهذا الفهم يقتضى منا القيام بوضع «تخطيط» قائم على فهم علمى للمستقبل ، لما ينبغى ان تقوم به الصحافة الفكرية والادبية من تزويد للانسان العربى بزاد ثقافى وأدبى وفنى ، ومن الاشتراك فى تشكيل الملامح الحضارية لمجتمع المستقبل ، بصورة تحقق الاهداف المستقبلية فى تجديد الذات العربية .

واذا كانت الدرسات المستقبلية قد حققت نجاحا ملحوظا فى مجالات الاقتصاد والسياسة والبيئة والطب والطاقة البشرية والتكنلوجيا ، الا أنها ما تزال فى المجالات الادبية رهينة التصور الخيالى ، الذى يسعى حثيثا الى الاستناد على اسس علمية ولا سيما ان الادب يتمثل فيه خلاص الانسانية الامر الذى يجعلنا نذهب الى ان صحافة الادب هى صحافة المستقبل ، لان الادب ـ كما يقول استاذنا توفيق الحكيم ـ هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة فى الانسان

والامة ٠ الحامل الناقل لمفاتيح الوعى فى شخصية الامة والانسان ٠٠ تلك الشخصية التى تتصل فيها حلقات الماضى والحاضر والمستقبل ٠٠

والاستقراء التاريخى يدلنا على ان مهمة الصحافة الأولى كانت عند نشأتها مهمة اخبارية : ما لبثت ان اضافت اليها وظائف اخرى مثل وظائف الرأى والتوجيه والامتاع والترفيه والاعلان والتسويق والتثقيف والتنشئة الاجتماعية

وتتضح الصورة المستقبلية للصحافة عند النظر الى الوظيفة الاخرى واعنى وظيفة التثقيف والتنشئة الاجتماعية ويذكرنا الحكيم فى هذا السياق بقول «بول فاليرى» : ان الانسانية فى جملتها لا تقرأ اليوم شيئا غير الصحف الى ان قال يجب تعليم تلاميذ المدارس ان يطالعوا الصحف ! ولست امزح ، ذلك ان الشعب ٠٠ اذا كان هو الحاكم ـ فان للحاكم ان يتسلم فى كل صباح تقريرا عن حالة ملكه وحالة العالم ٠٠ هذا التقرير موجود فى الصحف ! ٠٠ على انه ينبغى ان يتعلم كيف يستخرج منها هذا التقرير ، ذلك ان تحليل أية صحيفة من الصحف وغربلتها هما رياضة على جانب كبير من الفائدة ٠٠

ان الغذاء العقلى للجنس البشرى ، انما يعد الآن اعدادا فى مطابع الصحف ويعقب الحكيم على حديث فاليرى قائلا : « يدهشنى كيف ان مفكرا من طراز فاليرى يبسط الحقيقة بهذا الهدوء ٠٠ حقا لقد انتقلت مهمة تثقيف الشعوب من ايدى الفلاسفة والكتاب والشعراء والخطباء الى ايدى الصحفيين» ٠

من اجل ذلك نذهب الى أن صحافة الادب والفكر هى صحافة المستقبل التى لا تقوم بمجرد اقناع القارىء ، بل فى التفكير معه ، ذلك أن هذه الصحافة يمناها : الابداع الذى ينتج ويبتكر ، ويسراها : النقد الذى ينظم ويفسر ٠

وفى ختام حديثى عن مجلة الفكر ، ومستقبل الصحافة الادبية فى وطننا الكبير ، لا يسعنى الا ان أقول مع الحكيم :

« اذا أبصرت شعاعا فاعلم ان وراءه كوكبا ، واذا رايت أدبا فاعلم أن وراءه حضارة ٠٠ وما من خطر يهدد الشعاع الا انفجار الكوكب» ٠

د٠ عبد العزيز شرف
(القاهرة)

السيرة وأخبار الأيمة
لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر

تحقيق : عبد الرحمان أيوب

عرض : محمد أبو الأجفان

إن فى تراثنا الحضارى ذخائـر نفسية لم تحظ بعناية كافية ، ولم تتجـه اليها جهود الباحثين والمحققين لنفض الغبار عنها ، واخراجها لرواد ثقافتنا .

ومن هذه الذخائر ما يلقـى كاشف الاضواء علـى جوانب مـن تاريخنـا ، وما يبرز ملامح من النشاط الفكرى للاعلام من أهل مغربنا العربى الكبيـر .

وأحيانا يكون للاختلاف المذهبى دور فى اغفال بعض التصانيف واهمالها . بينما يقر الاسلام حرية الرأى ويفتح مجال الاجتهـاد ويتيح الخلاف ، وكـل ذلك فى أطار المبادىء الاسلامية والاحكام الشرعية التـى لا تخالف نصوص الوحى ولا تناقض أصول الدين .

على ان الهمة العلمية تدفع من حين لآخر ببعض الدارسين والمحققين الى شق درب المصاعب لابراز أثر هام من مصادرنا التاريخية المجهولة لدى عامة الناس ، والتى يحتاجها الباحثون لاستمداد المعلومات والافادات منها تطويرا للمعرفة واكمالا للصورة الحضارية فى فترات من ماضينا ، وتقدما بالبحث الى المستوى المنشود .

وهذا الكتاب الذى نعرض وصفه فى هذا المقال من تاليف شيخ اباضى عاش فى القرن الخامس الهجرى،واهتم بترجمته بعض الاجانب ثم انصبت عليه عناية باحث تونسى طبق فى تحقيقه أحسن منهج ، وهو الدكتور عبد الرحمان ايوب .

عنوان الكتاب « السيرة وأخبار الأيمة » .

ومؤلفه هو الشيخ الفقيه أبو زكرياء يحيى بن أبى بكر السدراتى الوارجلانى ، من تلاميذ الشيخ أبى الربيع سليمان بن يخلف المزاتى تـ (471) درس عليه فى وادى أريغ .

وقد أشارت المصادر الاباضية الى قيمته العلمية وما نسب اليه من أقوال دون افاضة فى سرد سيرته الذاتية ، على عادة هذه المصادر فى اغفال الاسهاب فى الترجمة الذاتية لاعلام هذا المذهب . كما لم تحدد سنة ميلاده ، ولا سنة وفاته التى كانت بعد سنة 471 لانه عاش بعد شيخه المذكور وروى عنه الكثير من الاحاديث التى أودعها كتابه الذى نتحدث عنه .

وقد قال فى مقدمة هذا الكتاب معرفا بالدافع الى تاليفه : (... إنه لما رأينا ما انطمس من الآثار ، وما اندرس من الاخبار ، انبعثت أفكارنا الى تاليف أخبار من سلف من مشائخ أهل الدعوى وصلحائها ، وتذكر مناقبهم ، وحسن سيرهم ، وجميل مذهبهم ونشر فضائلهم ، فكتبنا من ذلك ما تيسرت كتابته ، ورجونا منفعته ، من بعد ما خشينا على العوام ان يتخذوه وراءهم ظهريا ويجعلوه نسيا منسيا ...) (*) .

وقد تحدث المحقق الدكتور عبد الرحمان أيوب عن أهمية هذا الكتاب فقال:

« يعتبر كتاب السيرة واخبار الأيمة ، حسب معارفنا الحالية ، اقدم ما ألف فى تاريخ الاباضية ودخولها أرض المغرب من قبل أحد شيوخها المغاربة ،

(*) كتاب السيرة : ص : 39 ـ 40 .

وهو يشتمل على حديث مسهب حول الرستميين وتأسيس دولتهم في تاهرت وسقوطها ، وعلى صراع الاباضية مع الفاطميين فـي القرن الثالث للهجرة ، ويعتبر هذا الكتاب المرجع الاول الذى أخذت عنه المصادر الاباضية اللاحقة لتاريخ مشائخ الاباضية فى المغرب ، وكيف بدأ تعلمهم وانتقالهم بين المغرب والمشرق ، والدور الذى قامت به حملة العلم الخمسة فـي نشـر التعاليم الاباضية ما بين جبل نفوسة وتاهرت ، كما يشتمل الافتراقات الخمسة التى حدثت بين الاباضية خلال ثلاثة قرون وأسبابها ، والمسائـل الفقهيـة التى تحاورت حولها المشائخ وحدها » (ص : 15) .

وقد وزع المؤلف كتابه على جزأين دون ان يعطى عنوانا لكل جزء وجعـل تحت كل جزء فصولا ، لكل فصل عنوان خـاص . ولئن بلغت فصـول الجزء الاول خمسة وثلاثين ، فانها لم تتجاوز فى الجزء الثاني أربعة عشر فصلا .

وقد أورد ضمن فصول الجزأين أخبار كثير من اعـلام الاباضية وسيرهم ونشاطهم العلمي ، مع ذكر بعض الاحداث التـى لها أثر فى حياتهم ، وذكـر لبعض المناظرات .

وقد ذكر المحقق فى المقدمة المناسبة التى أتاحت له اكتشاف هذا الاثر من تراثنا المغمور ، حيث كان هذا الكتاب بين مجموعة مـن المخطوطـات والوثائق المتعلقة بالبلاد التونسية اطلع عليها المحقـق عند اقامته بباريس سنة 1976 وهى مـن مخلفات احد الفرنسيين المولعيـن بالبحـث والتاريـخ والآثار هو السيد جان أوغشت بسترو المولود بالجزائـر سنة 1856 والذى كان له دور فى النشاط الاستعمارى بالجزائر وتونس التـى استقر بها بعد احتلالها وتولى بعض الوظائف بها مثل عضوية لجنة رسم الحدود التونسيـة ــ الليبية سنة 1910 وأمانة المال للمجلة التونسية فى نفس السنة وعضوية لجنـة الدراسات العربية ، والترجمة فـى المحاكم التونسية سنـة 1911 . وكانت وفاته بتونس سنة 1937 .

ولقد نال هذا الكتاب عناية الباحثين الاجانب فوقعت ترجمته الى الفرنسية ثلاث مرات .

ترجمه ماسكرى سنة 1878 ونشره بالجزائر ، ولكنـه اقتصر على الجـزء الاول منه .

وترجمه جان اوغشت بسترو سابق الذكر .

واشترك فى ترجمته لوتورنو وادريس للمجلة الافريقية سنة 1960 ــ 1961

وقد استفاد المحقق الدكتور أيوب من عمل هؤلاء ، دون أن تثنيه نصوصهم المترجمة عن البحث الجاد عن نسخ من الاصل العربى ولم يثمر البحث عن نسخة فى جربة وهى احدى قلاع الاباضية ، كما لم تثمر جهوده فى الحصول على مصورة من نسخة المكتبة الجامعية بالجزائر ، وباءت جهوده فى الحصول على مصورة من نسخة مكتبة المتحف البولونى بكراكوف بالنتيجة نفسها .

ثم عثر على نسخة جيدة بدار الكتب المصرية بخط اباضى من جبل نفوسة يدعى ابراهيم بن سليمان الشماخى متوفى فى مطلع القرن العشرين تحمل رقم 9030 ح .

وقد وصفها المحقق كما وصف نسخة بوسترو المذكورة وقارن بينهما واعتمدهما فى ابراز نص سليم محقق ، حسن التوزيع ، مرقم الفقرات ، ثرى بالتعاليق المشتملة على تعريف بالاعلام والاماكن مستقيا ذلك من المصادر الاباضية وغير الاباضية .

وجعل المحقق نص الكتاب مذيلا بكشوف هامة تفيدالقارىء وترشده الى موطن بغيته من الكتاب ، وهى تشمل ما يلى :

① التواريخ الواردة فى الكتاب دالة على أهم الاحداث التى استعرضها المؤلف .

② المسائل الفقهية التى تناولها الشيوخ .

③ الامثال المتناثرة فى الكتاب .

④ الآيات القرآنية .

⑤ الأحاديث النبوية .

⑥ الاعلام الذى بلغ عددهم 337 علما .

⑦ الأماكن التى بلغت 127 موضعا .

⑧ القبائل ، وهى تعد 53 قبيلة .

⑨ الفرق : تصل الى 18 فرقة .

وتتصدر هذه الكشوف قائمة المصادر والمراجع ، والترتيب فيها أبجدى حسب أسماء مؤلفيها .

أصدرت هذه الطبعة الاولى من هذا الكتاب الدار التونسيــة للنشر خلال سنتنا الجارية (1405 ـ 1985) فى 446 ص من الحجم العادى (مقدمة المحقــق تنتهى فى 23 ـ نص المؤلف ينتهى فى ص 385 ـ البقية للفهارس) .

وبذلت جهدا فى الاصلاح وتجنب الاخطاء ، حتــى ان القارىء اذا جد فــى البحث عن اخطاء مطبعية لا يظفــر الا بـ (يرجع البعض) وصوابهــا (يرجــع البعض) وذلك فى ص 15 ـ و (ينتفخ منخــاراه) وصوابها (ينتفــخ منخــراه) وذلك فى ص 319 .

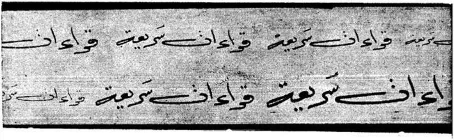
والخلاصة ان « كتاب السيرة وأخبار الأيمة » لأبى زكريــاء يحيى بن أبى بكر الوارجلانى من اهم الوثائق فى تاريخ الاباضية يعــرف بمنهجهم الفكرى والعقدى وببعض فروعهم الفقهية وبالكثيــر من رجــالهم ، ويصــف الحيــاة العلمية عندهم فى بعض الفترات وطرق التلقــى عن شيوخهم وعلومهم التــى كانوا يتداولونها ... وقد اكتسب اهميته من قيمة مؤلفه ، وايغاله فــى القدم مما جعل مترجمى طبقات الاباضية يعتمدونه .

وان الجهد الذى بذله محققه الدكتور عبد الرحمان أيوب يمثل حلقة هامــة فى خدمة هذه الوثيقة التاريخية توجــت خطوات المترجمين الذيــن سعــوا لابراز محتوى الكتاب لذوى اللسان الفرنسى فى نطــاق اهتمــامهم بتاريــخ حضارة المغرب العربـــى .

واذ نبارك هذا الجهد وننوه بالمنهج العلمى فى التحقيق وبالدقة الملحوظة والسعى لشحن الهوامش بالمفيد مع الاستعانة بالكتب والوثائق ذات الصلة المتينة بموضوع الكتاب ، فاننا نلاحظ ما تركــه عزوف المحقق عــن تخريج الاحاديث الواردة فى نص الكتاب من ثغرة تجعل القارىء مشتاقا الى ما يعرفه بمستواها من الصحة .

وان المكتبة التاريخية لتنتظر من الدكتور عبد الرحمان أيوب مزيد البذل والجهد لتحقيق مخطوطات أخرى من النوادر النفيسة والذخائر القيمة .

محمد ابو الأجفان



• محمد علي الحامي وحوادث الزمان :

صدر بتاريخ جوان 1985 لمحمد علي بالحولة كتاب بعنوان « محمد علي الحامي وحوادث الايام » تناول فيه صاحبه حياة الزعيم النقابي محمد علي الحامي وجهاده النقابي البطولي في فترة جد عصيبة من تاريخ تونس الحديث اذ وافقت أشد عهد الحماية والاستعمار استبدادا وتعسفا وقمعا .

والكتاب في أربعة أبـــواب :

الباب الاول عبارة عن مدخل تاريخي يتناول محمد علي من تاريخ ولادتـه سنة 1890 الى خروجه من تركيا ونهاية الحرب العالمية الاولى مرورا بالوضع بتونس أيام ولادته وشبابه والتطوع فـي الجهاد الليبـي ومدة مهاجرته فـي تركيـــا .

والباب الثاني فـي تطور الحركة الوطنية بعد الحرب العالميـة الاولـى ويتناول اقامة محمد علي بألمانيا والحركة العمالية بعد عـودته الى الـوطن : الاضرابات والجولات وبعث « جامعة عموم العملة التونسيين » والتيار الوطني للحركة النقابية التونسية .

والباب الثالث يتناول الحركة النقابية ككسب للكفاح الاجتماعي والقومي من عام 1925 الى وفاة محمد علي عام 1928 وهذه الفترة ثرية وهامة بالنسبـة لمحمد علي من جهة وللنشاط النقابي فـي تونس من جهـة أخرى ، بسبـب تحركات محمد علي ومناصرة الحزب الحر الدستوري له والمصادمة مع قوى الاستعمار والقمع والسجن واخيرا أيقاف محمد علي ومحاكمتـه ونفيه الـذي

تقلب فيه فى المغرب قاصدا التطوع فى حرب الريف مع الامير عبد الكريم الخطابى الى مصر الى السعودية حيث عمل كسائق سيارة أجرة ووافاه الاجل فى حادث اصطدام بوادى المصيلة فى الطريق ما بين مكة وجدة يوم 25 ماى 1928 .

أما الباب الرابع والاخير فيتناول تطور الحركة النقابية من « جامعة عموم العملة التونسيين » الى « الاتحاد العام التونسى للشغل » أى من محمد علي الحامي الى فرحات حشاد مع ابراز اوجه الشبه بين الزعيمين والكفاحين والطريقتين على حد قول صاحب الكتاب » .

« ومن صدف التاريخ أن يكون محمد على وحشاد ... رجلين متشابهين تعليما وتجربة وثقافة وعملا .. وحبا واخلاصا للوطن » .

وان كان لنا بعض الاحتراز فيما يخص الجزء الاول من قول محمد على بالحولة وبالخصوص فى مستوى التجربة والثقافة فالجزء الثانى منه ثابت لا ريب فيه وعلى كل ومهما كان الامر فقد بقيت أعمالهما معالم نورانية شاهدة على مدى الطاقة النادرة للبذل والعطاء والتضحية شغلت الناس وما زالت تشغل وستبقى تشغل الصادقين المخلصين على مر الايام .

• نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ؟

صدر ببيروت سنة 1983 كتاب « نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين » للدكتورة إلفت كمال الروبى وتناول هذا الموضوع خاصة بالنظرة المعاصرة . شيء حديث ان لم نقل جديد لم ينظر اليه قبلا من هذا المنظار اذ ان الظاهر سلفا كان اعتبار الشعر أبعد ما يكون عن المنطق او الفلسفة لكننا اذا تصفحنا حديث الفلاسفة عن الشعر رغم تناثره وتفرقه فى مؤلفاتهم الفلسفية يحدد مفهوما للشعر وطبيعته ووظيفته واداته بشكل نسقا مترابط الاجزاء متكاملا يترتب عنه تصور خاص للاداة او اللغة الشعرية .

وبما ان لفظة الفلاسفة لفظة عامة قد شملت مع الفلاسفة الخلص غيرهم من مفكرى الاسلام العقلانيين وعلماء الكلام والفقهاء والمتصوفة فان دراسة الدكتورة الفت كمال الروبى اقتصرت فى ما تسميه « نظرية الشعر » على الفلاسفة الخلص ابتداء بالكندى وانتهاء بابن رشد .

والكتاب في خمسة فصول يتناول أولهما مكانة الخيال بين قوى الادراك عند الانسان والثاني مفهوم الشعر والثالث مهمة الشعر والرابع طبيعة استخدام اللغة في الشعر (استخداما خاصا غير استخدامها في العلم والخطابة) والخامس وسائل التخييل في الشعر .

ومن خلاصة الكتاب يتبين أن الفلاسفة المسلمين في نظرتهم للشعر ووضع قوانين صياغته أخضعوا « التنظير للشعر » للنظر العقلي الفلسفي فجعلوه فرعا من فروع المنطق لكن في ادنى درجات القياس المنطقي اذ عدوا البرهان أشرف وأعلى الدرجات يليه الجدل فالسفسطة فالخطابة وأخيرا الشعر .

◆ نسيب الشريف الرضي :

صدر عن دار الجماهير للصحافة ببغداد كتاب للدكتورة عاتكة الخزرجي بالعنوان أعلاه جمعت فيه وحققت وشرحت (في السنوات ما بين 1979 و 1984) نسيب الشريف الرضي وأخرجته بخطها وبالحبر الاخضر وهو شعار الشرف .

يتصدر الكتاب تمهيد في التعريف بشعر الشريف الرضي ومختلف طبعاته العربية والغربية وبالمخطوطات الخاصة به مع نماذج صور لصفحات من المخطوطتين اللتين اعتمدتهما بصورة خاصة وهما من خط عباس بن علي الحلي البغدادي احداهما بتاريخ 1285 والثانية بتاريخ 1304 هجري .

ثم يأتي نص الديوان مرتبا حسب القوافي والتسلسل الأبجدي والكتاب أنيق وان كان كبير الحجم ثقيل الوزن يبدو للقارىء كنسخة جديدة للمخطوطتين المعتمدتين في خط شرقي جميل لكنه لا ييسر التناول بالخصوص للقراء المغاربة .

◆ اتحاف أهل الزمن :

لقد أعادت الشركة التونسية للتوزيع بتاريخ ماي 1985 نشر الباب السادس من كتاب « اتحاف أهل الزمن بأخبار ملوك تونس وعهد الامان » لاحمد بن ابي الضياف وهو الخاص « بدولة أحمد باي » بتحقيق الاستاذ أحمد عبد السلام .

فمع أن كتاب « اتحاف أهل الزمن » قد وقع الشروع فى نشره تباعا منذ سنة 1963 بعناية كتابة الدولة للثقافة والارشاد آنذاك وهو منذ زمن بأكمله بين أيدى المهتمين بالتاريخ التونسى فانا نعتقد أن الجزء أو الفصل الذى بين أيدينا اليوم هو أول طبعة تخضع الى التحقيق بأوفر الضمانات لتوخى الاخ احمد عبد السلام المنهجية العلمية فى التحقيق بكل ما تتطلبه من جدية وتثبت واحتمال لا تطرف فيه وصبر على الاطلاع على جميع المخطوطات ومقارنتها مقارنة ثابتة مع الاهتمام بالحواشى والزيادات ونوع الخطوط والاستعمالات اللغوية .. الخ .

و « دولة احمد باى » هذه تشمل ترجمة للمؤلف ابن ابى الضياف ثم كلمة فى الكتاب والمخطوطات المختلفة المستعملة فى التحقيق مع صور لبعض صفحات مختلفة منها ثم النص المحقق (من صفحة 43 الى صفحة 226) تليه ملحقات عبارة عن 15 وثيقة محفوظة بخزينة الدولة وفهارس للاعلام والوظائف والرتب والمصطلحات والقوافى والمؤلفات المذكورة فى النص .

وينتهى الكتاب بالفهرس العام المتعلق بالمقدمات والمحتوى والملحقات والفهارس .

كما يشمل الكتاب أيضا ترجمة فرنسية للمقدمة والتحليل والتعليقات .

• مصطلح السياسة عند العرب :

صدر بتاريخ مارس 1985 عن الدار التونسية للنشر كتاب « دراسات فى مصطلح السياسة عند العرب » للدكتور أحمد عبد السلام وهو جمع لحصيلة أولى من دراسات فى ميدان طريف وممتع أحيانا .

لقد حدد الاستاذ أحمد عبد السلام موضوعه فى الزمان والمكان اذ تناول الفترة ما بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر واقتصرت المقارنة على « مقدمة » ابن خلدون وكتابى « أقوم المسالك » لخير الدين و « اتحاف أهل الزمن » لابن أبى الضياف .

والكتاب فى ثلاثة بحوث الاول فى المصطلح اللغوى للسياسة ثم فى العلوم ومستواها والثانى فى الملك والدولة والثالث فى الوازع والعصبية والشورى وأهل الحل والعقد .

وعلى كل فان هذه الحصيلة الاولى من بحوث الكاتب تساهم دون شك في توضيح جوانب من تاريخ التفكير السياسي في تونس .

• **مقتطع من مخطوطة لسيرة بني هلال :**

صدر عن المكتبة الاستشراقية بول قوقنار لفائدة جمعية جلاس Association Gellas مقتطع من مخطوطة لسيرة بني هلال موجودة بالمكتبة الوطنية لبرلين الغربية تولى تحقيقه والتعليق عليه وترجمته الى اللغة الفرنسية عبد الرحمان ايوب بالاشتراك مع ارلات روز ووضعت له هذه الاخيرة معجم مصطلحات Index Glossaire لا يقل عن 120 صفحة (من 77 الى 195) .

المقتطع من المخطوطة مشتمل على 25 صفحة بالعربية تقابلها 25 صفحة فرنسية (من 16 الى 65) تليها ملاحظات متعلقة بالنص وبالترجمة (66 الى 75) مع صورة للصفحة الاولى والصفحة الاخيرة من المخطوطة .

وهذا المقتطع من المخطوطة يروى فعلا من السيرة الهلالية ساقه المؤلفان لقراء العربية والفرنسية مع تعليقات تسمح بتحليله اعتمادا على عناصره وطرحا فيه نقاطا وسمات من شانها ان تساعد على البحث المقارن للمخطوطات .

• **التوازن الدولي :**

صدر عن الدار العربية للكتاب بتاريخ 1985 كتاب « التوازن الدولي من الحرب الباردة الى الانفراج » لهشام القروى يقدم فيه بطريقة واضحة سهلة المتناول أوضاع العالم ومشاكله فى ظل الحربين العالميتين وآثار مخلفاتهما وما انجر ولا يزال ينجر عنهما من تكون كتل ونشوب صراعات وتناوب فترات ساخنة أو باردة وتحولات فى مناطق النفوذ وانهيار أحلاف ونشوء أزمات ومن وراء كل ذلك الايدى الظاهرة او الخفية للعملاقين الشرقى والغربى مع تطور موقف العالم الثالث الأفروآسيوى وخاصة العالم العربى والاسلامى منه الذى يحاول الا يكون منحازا وأن يقرأ له حساب فيعم الانفراج وتصبح العلاقات الدولية ديمقراطية ويعمل حقا على وقف تسابق التسلح وحل النزاعات والتخلى عن الاستعمار الجديد وعلى اقامة نظام

أقتصادى عالمى جديد لا يترك مجالا لنشوب حرب اقتصادية بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

ان السلام كل لا يتجزأ الا بضمان امن سياسى وأمن اقتصادى اجتماعى شرقا وغربا وجنوبا فعلى الدول الكبرى اذا ارادت حقا السلام (وهذا غير موثوق فيه) أن تولى إهتمامها أولا وبالذات بالمشاكل التى تعنى مجموعة الانسانية لا الى خلق مناطق انفراج بينما تبقى التوتر ويدوم خطر المواجهة .

• **عـرس بغـل :**

صدر سنة 1982 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر رواية « عرس بغل » للقصاص الجزائرى الطاهر وطار تبدو كالرحلة فى الواقع الجزائرى ومن ورائه الواقع العربى الذى لا يزال يتخبط فى الاندفاعات الغلوائية والخواطر الصبيانية دائم التأرجح بين أحلام الماضى ومأسوية الحاضر لا تلمع فيه ملامح المستقبل الا فى ضبابية كثيفة ومربوطة دائما إلى أوهام الماضوية والتخلف ... ماخور تتبخر فيه الاخلاق وتضطرب المعتقدات يتصارع فيه عباد الجسد وعباد الاتجار ويتشوش كل شيء حتى ترتيب صفحات الكتاب (انظر الصفحات من 32 الى 62).

• **دليل المراة الحامـل :**

صدر للاستاذ مصطفى الوحيشى كتاب تحت هذا العنوان القصد منه التعريف بصورة مبسطة فى تناول عامة الناس رجالا ونساء **بالحمل** أعراضه تشخيصه المراقبة الطبية والوقاية ومضاعفات ما قد يسبقه أو ينتج عنه من أمراض ثم **بالجنين** تكونه نموه علاقته بأمه جنسه أوصافه وما قد يصيبه من تشويهات مع التعرض الى التوائم ثم **بالولادة** تحديد موعدها الاستعداد لها الجسدى والنفسانى أنواعها واختيار مكانها وأخيرا **بالمولود** استقباله العناية به الرضاعة الفطام .

وينتهى الكتاب بمعلومات خاصة بالحامل أمام الشريعة متعلقة بالصوم والصلاة والحج مع بعض الفصول القانونية الخاصة بعطل الولادة فى الوظيفة العمومية .

ندوة القراء

نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى

بقلم : الحبيب بن فضيله

نشرت مجلة « الفيصل » السعودية في عددها 105 المؤرخ في نوفمبر/ديسمبر 1985 في الصفحة 30 مقالا بامضاء الدكتور عبد العزيز المقالح عنوانه : « البشير بن سلامه ونظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى » .

كما نشر السيد محمد كمون في مجلة « النشرة التربوية للتعليم الثانوي بتونس » في العدد 23 المؤرخ في ديسمبر 1985 مقالا ورد في الصفحة 37 بعنوان : « الجانب الابداعي في كتاب : نظرية التطعيم الايقاعي للبشير بن سلامه » وبقدر ما كان المقال الاول مركزا ومعلمنا بقدر ما كان المقال الثاني متسما بالسطحية والسرعة . ذلك أن السيد محمد كمون بعد ان قدم لبحثه بمقدمة تاريخية عامة تعود الى اقدم العصور طرح السؤال التالي : ما هي هذه النظرية ومن هو صاحبها ؟

وانتظرنا منه تعريفا لماهية نظرية ابن سلامه هذه ولكنه ظل يحلق بعيدا عن صلب الموضوع اذ نجده يقول :

«انها نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى للاديب الاستاذ البشير بن سلامه الذي سبق أن تناول قضايا اللغة في كتابه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » كما أشار اليها في بعض فصول كتابه « الشخصية التونسية : خصائصها ومقوماتها » .

ولئن قال محمد كمون فيما بعد ما يلي : « هذه النظرية تبحث في مناهج تطوير الجملة العربية بما يضمن لها التفاعل الدائم مع النفوس حتى تجد منها ميلا وأنسا » فان هذا الامر غير كاف . إذ من المفروض أن يوضح الدارس كيفية وطرق هذا البحث في مناهج تطوير الجملة العربية ؟

ونحن اذ نعيب على الاستاذ كمون هذا التسرع فلأننا كنا ننتظر منه تحليلا عميقا مركزا وهو أمر ليس بالعسير على أستاذنا الذي وقف على بعض الجوانب الابداعية في هذا الكتاب المدروس والمنحصرة فيما يلي كما يذكر ذلك بنفسه :

– المظهر الاول للابداع في هذه النظرية يتمثل في الدعوة الى استخلاص الايقاعات من الجملة العربية المتطورة من خلال الانتاج الفكري الراقي عن طريق الدراسات اللغوية المعمقة وبواسطة استخدام أحدث الآلات لتحديد ايقاعات الجملة العربية في مرحلة لاحقة .

ـ المظهر الثاني للابداع في هذه النظرية يتمثل في وجوب السعي الى ضبط التحديدات التي تجعل الانسان يشعر بالتغير الحاصل في بعض الاساليب وبيان مصادرها وتدقيقها .

ـ اما المظهر الابداعي الطريف في هذه النظرية فيتمثل في دراسة أساليب بعض المبدعين بطريقة علمية تعتمد المنطق والعقل والمقاييس الصوتية بعيدا عن المعايير الذوقية والعاطفية .

وقد اختتم السيد محمد كمون مقاله قائلا : « هذه هي بعض الجوانب الابداعية في نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى وقد فسح الاستاذ ابن سلامه المجال أمام النقاد العرب ليثروا هذا المنهج بما يصلون اليه من استنتاجات تتماشى مع المنهج العام الذي وضح معالمه ووضح أسسه الاولى » .

أما الدكتور عبد العزيز المقالح فيقول : [عندما وقع في يدي كتاب « نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى » للاستاذ البشير بن سلامه ادركت انه واحد من هذه الكتب الكثيرة التي تحاول في هذه المرحلة من التطور في المناهج الاسلوبية أن تشق مجرى جديدا في النهر القديم] .

وبعد ذلك استعرض الدكتور المقالح الفقرة الاخيرة التي ختم بها ابن سلامه كتابه مشيرا الى انه قفز بالقارىء الى نهاية الكتاب ليطلعه على مدى تواضع المؤلف . وبعد الحديث العام عن الكتاب يذكر عناوين الفصول مرتبة :

★ أولا : تطور الجملة العربية عند المولدين .

★ ثانيا : الكلام واللغة .

★ ثالثا : الحد من التفاوت بين الفصحى والعامية .

★ رابعا : العوامل الباعثة للغة طه حسين ـ نثر طه حسين .

★ خامسا : تطور الجملة العربية في الادب الافريقي .

★ سادسا : نظرية التطعيم الايقاعي في الفصحى .

ثم يقول : يمكن اعتبار الفصول الخمسة الاولى تمهيدا وصفيا وتاريخيا للفصل الاخير ومقدمة لا بد منها لتأسيس الاصول العامة لنظرية التطعيم الايقاعي ومما يجعلنا نقدر للكاتب جهده المبذول في اقامة هذه النظرية ووضعها على محك التجربة العملية انه يسعى الى إذابة اللهجة العامية في الفصحى بعكس أولئك الذين يسعون الى إذابة الفصحى في العامية ، وهي قضية ـ بغض النظر عن مدى النجاح الذي أحرزه الكتاب في طرحها ـ تستحق أن تنال كثيرا من عناية الباحثين وأن تجد المزيد من التطوير والاضافة .

أصدقاء الفكر

● **مزالي : فكر من نور في مواعيد دائمة مع التكريم :**

تحت هذا العنوان نشرت جريدة «الأيام» يوم الخميس 26 ديسمبر 1985 ص 2 كلمة تنويه بموقف الاستاذ محمد مزالي لفائدة حرية التعبير ببلادنا جاء فيها ما يلي :

حين بلغنا ان السيد محمد مزالي الوزير الاول ووزير الداخلية قد تدخل شخصيا وأمر برفع الايقاف عن « الأيام » في ظرف كانت الجريدة تحتضر ، بل على قاب قوسين أو أدنى من دخول قبر لا رجوع بعده الى الناس والحياة ، حين فعل ذلك فقد اثبت ان فكر رجل الادب والفلسفة أي فكر الحرية والفضيلة والمثل العليا لا يزال على جبلته . وان تعامله مع السياسة ومشاقها وأحابيلها ومفاوزها ومخاطرها لم تغير من طينته بل ولم تلونها فاذا هي على الدوام بيضاء ناصعة الاشراقة .

ولقد أكرمت « السوربون » هذا الهرم العلمي الشامخ في الامس البعيد طالبها القديم واحتفت بخريجها الذي ما ان اقتحم السياسة حتى حمل اليها مبادىء السمو والقداسة ولم يتنكر لذاته ومعارفه ولرصيده العلمي والانساني فاذا هو مناخ جديد تغزو أنواره بلادنا واذا الديمقراطية تتحول من حلم الى ممارسة وواقع وعملة متداولة بين اتجاهات مذهبية لئن اختلفت في الرؤية والرأي فانها تلتقي جميعا حول حب الوطن ومجد تونس الدائم ... واحقاقا للحق فان محمد مزالي كان منعطفا بارزا في تاريخ تونس ومعه اصبح المحظور مسموحا به. واخترقت الصحافة مساحات شاسعة من الحرية والرأي الطليق ، وما تزايد العناوين المستقلة الا شهادة صدق تعيد لقيصر ما لقيصر ...

والثابت ان منح الاستاذ مزالى منذ أيام ميدالية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم انما هو توسيم يمس كل المثقفين التونسيين وفخر يناله الشعب فى شخص وزيره الاول ، أى في شخص الرجل الذى حيثما انتقل فى اصقاع البلاد اختلط بالمحرومين وضعاف الحال وصافح كل الايادى التى تعتمد اليه مصافحة المحبة الخالصة والوفاء السرمدى لقيم الحق والعدل وصفاء النفس .

سيادة الوزير : بعودتنا ونيابة عن آلاف قـراء « الأيـام » تفضلوا بقبول آيات عرفاننا وذاك أقل من نقدر على تقديمه . سائلين الله ان تمضى تونس فى عهد حكومتكم من رخاء الى سؤدد ومن سلم الى استقرار لا نهاية له ...

● **الاسلـوب هـو الرجـل :**

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الصدى » بقلم الصديق صالح الحاجه فى ركن « لحظة » يوم الاحد 29 ديسمبر 1985 وقد جاء فيها ما يلى :

ولمحمد مزالى السيـاسى ،، والمفكـر ،، والـوطنى ،، أسلوب خاص فى الخطابة ،،بل بامكانك ان تقول : إنه صاحب قاموس لغوى وخطـابى ألفـه ونشره مـزالى .

انك عندما تصغى اليه اصغاء فيه انتباه ،، وجد ،، تستنتـج استنتاجـا صريحا بانه صادق كل الصدق فى كل ما يقول ،، وفى كل ما ينطق به ،، فلا مراوغة ،، ولا تدجيل ،، ولا دمغجة ،، ولا ثرثرة .

ان صدقه تعكسه بوضوح وجلاء نوعية اللغة التى يستعملها ويدلـل عليه أسلوبه فى الخطابة ،، وهو أسلوب يجمع بين بساطة العـرض ،، وبـلاغة العبارة وقوة الحجة .

ولكن مأساتنا اننا لم نعد نحسن الاستماع !.
فلقد أصبحنا نستمع الى أنفسنا أكثر مما نصغي الى الآخرين !

● **الهيئـة الجديـدة لاتحـاد الكتـاب التـونسيين :**

فى جو من الديمقراطية الخالصة تم انتخاب الهيئة الجديدة لاتحاد الكتاب التونسيين الذى حضر فى مؤتمره الاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية وألقى كلمة قيمة وضح فيها آفاق العمل الثقافى ببلادنا وما هو عليه وما يجب أن يكون وبعد قراءة التقرير الادبى والتقرير المالى ــ اللـذان تمت المصادقة عليهما بالاغلبية الساحقة ــ تم انتخاب الهيئة الجديدة فكانت كما يلى :

★ محمد العروسي المطوى : رئيس

★ عبد السلام المسدى : أمين عام

★ الميدانى بن صالح : أمين مال

★ محمد مواعدة : نائب الرئيس

★ محمد المصمولى : أمين عام مساعد

★ علي دب : أمين مال مساعد

★ مصطفى الفارسى : العلاقات الخارجية

★ جلول عزونة : النشر والاعلام

★ رضوان الكونى : الندوات والدراسات

★ محمد الحبيب جمادى : النوادى والفروع

● **فكر المسلمين السياسى خلال الحقبة الاستعمارية :**

يعقد المعهد الاسلامي بلندن من السادس حتى التاسع من شهر أوت 1986 ندوة عالمية حول « فكر المسلمين السياسى خلال الحقبة الاستعمارية » ، وتعتبر هذه الندوة السادسة فى رصيد هذا المعهد منذ سنة 1982 حيث أهتم بتسليط الاضواء على مشكلات وقضايا ومواقف سياسية وفكرية اسلامية محددة تحديدا دقيقا ، ففى سنة 1982 انعقدت ندوة عالمية حول الحج ، وسنة 1983 تم الالتقاء حول قضية الدولة والسياسة فى الاسلام ، واهتمت ندوة سنة 1984 بمسالة واقع الثورة فى ايران ، أما فى سنة 1985 فقد تم تدارس أثر القومية فى الأمة الاسلامية .

وتاتى هذه الندوة السادسة لتبحر عبر حقبة كبيرة من تاريخ الأمة الاسلامية ما تزال بعض رواسبها تلازمنا وهى حقبة الاستعمار الغربى فى التاريخ الحديث ، أى انطلاقا من غزو نابليون لمصر سنة 1798 وما تخللها من حركات جهاد أثرت تأثيرا بالغا على فلسفة الثورة ضد الاستعمار .

● الملتقى التاسع عشر للفكـر الاسلامى :

انعقد مؤخرا بعاصمة الجزائر الملتقى التاسع عشر للفكر الاسلامى وتمخضت اجتماعاته عن جملة مـن التوصيات الهامة المتعلقـة بواقع الفكـر الاسـلامى ومؤسساته ، ومـن أهم التوصيات الواردة بالقـرار الختامى للملتقـى نذكـر التوصية الخاصة بالتوسع فى انشاء المراكز الاسلامية بالخارج ، وتلك المتعلقة ببعث منظمة اسلامية تعنى بشؤون الجاليات الاسلامية وحقوق الاقليات وارسال مشاهير الدعاة والعلماء اليهم فى زيارات وجـولات لشـرح شعائر الاسـلام وتعاليمـه .

● فرضيـة اصـل شعـوب منسيـة :

تمكن مؤخرا علماء الآثار « بفليد ميوزيوم » بمدينة شيكاغو الامريكيـة من تقديم أول تحديد تاريخي لزمن قيام وسقوط حضارة شديدة الأهمية نشأت على طول وادى « كـوكا » المتد على مسافة 800 كلم بين الاكواتور وكولمبيا فى أمريكا اللاتينية من 600 الى 1500 ق م وقد تمت أشغال هؤلاء العلماء انطلاقا من أجزاء آنية تم العثور عليها فى الرماد البركانى بالوادى ومن هنـا أصبح لدى العلماء فرضية عمل ثابتة حول أصل شعوب الانكا والمايا والآزتيك الذى لم يكن العلم يعرف عنه شيئا .

● السوق العالميـة للترجمـة :

تشير تقارير المجموعة الاوربية حول سوق الترجمة فى العالم الى أن هـذه السوق تستهلك فى العام الواحد حوالى 150 مليون صفحة مترجمة يعدها 175 ألف مترجم وتبلغ نفقاتها 3 مليارات دولار أما وتيرة تطورها وهى الآن تتراوح بين 9 ٪ و 10 ٪ فيمكن ايصالها الى 30 ٪ اذا ما تم تخفيض الكلفة المالية للترجمة . وتؤكد نفس التقارير أن الترجمة تمثل نحو 7 ٪ من ميزانية الامم المتحدة و 40 ٪ من النفقات الادارية للسوق الاوربية المشتركة علما وأن اللغة العربية هى اللغة السادسة فى العالم بالنسبة لترتيب اللغات المستعملة ، اذ تأتى بعد الصينية والانكليزية والروسية والاسبانيـة والهندية ، وقبـل البرتغاليـة والالمانيـة واليابانية والاندونيسية والفرنسيـة .